القسم الأول
التوغل في موريتانيا

إن تاريخ التوغل في موريتانيا يمكن أن يقسم إلى ثلاث فترات كبرى :

تبدأ الأولى من القرن السادس قبل هذا العصر، مع رحلة حنون[1] وتنتهي سنة ١٨١٧ تاريخ استقرارنا النهائي في السنغال. وهذه الفترة هي فترة الرحلات واستكشافات الشعوب المبحرة، وهي كذلك حقبة المحاولات الأولى لإنشاء مراكز تجارية داخل البلاد وعلى سواحل البحار.

وفي القرن السابع عشر والثامن عشر جاءت مرحلة التنافس بين البرتغال وهولندا وفرنسا وانكلترا، لتضمن كلٌ من هذه الدول احتكار التجارة في هذا البلد المنتج للصمغ العربي والمزوِّد بالعبيد.

أما الحقبة الثانية فتمتد من تاريخ استقرارنا النهائي بالسنغال سنة ١٨١٧ لغاية بداية دخولنا إلى أرض البيضان سنة ١٩٠٢، وهي الفترة التي حصلت فيها فرنسا بفضل النمو المتزايد لنشاطاتها في السنغال والإقليم السوداني على وضعية مرجحة في إفريقيا الغربية، مما مكنها لاحقا من الانتصار على منافسيها في البلاد البيضانية.

---

(١) **حنون القرطاجني** : نسبت إليه الرحلة الشهيرة إلى سواحل غرب إفريقيا، ولا تزال رحلته محل جدل بين المؤرخين.

وخلال هذه الفترة لم يكن همنا أن نضع قَدَماً في الضفة اليمنى من نهر السنغال، وحتى لو اقتضى الأمر أن نحمل أسلحة في هذه البلاد فإن ذلك كان فقط ضمن عمليات عابرة وبهدف أن نضمن حرية التجارة لمواطنينا. فلم يكن همنا خلال علاقاتنا مع البيضان إلا الربح التجاري، وقد كنا نحاول وضع جرد لخيرات هذا البلد من خلال ابتعاث رجال يجوبون البلد.

وأخيرا فإن الفترة الثالثة تبدأ من سنة ١٩٠٢ إلى سنة ١٩١٠، هي مرحلة التوغل بالمعنى الصحيح والغزو، وتنتهي هذه المرحلة بالاحتلال النهائي للبلاد من الضفة اليمنى للنهر إلى ما وراء المرتفعات الصخرية لآدرار التمر[١].

ومن نهاية هذه الفترة الثالثة بدأت فترة رابعة، وهي فترة التنظيم الإداري والسياسي لبلاد البيضان والمُسالمة النهائية، ولكن متى ستنتهي هذه المرحلة؟... من الصعب وضع توقعات لذلك، ذلك أننا نواجه عقبات في الشمال، حيث الشعوب المتمردة والتي ليس لنا عليها سلطان فعال، لأن هذه القبائل المتلصصة ذات الطابع الاستقلالي التي يتشكل منها هؤلاء المتمردون، يملكون الحيلة للاختفاء واللجوء بعد كل العمليات التي يحاولون ضدنا، وذلك في البلاد التي لا يمكننا الولوج إليها، سواء بسبب بُعدِها أو بسبب وجودها في أرض أجنبية لا يُسمح لنا بالمطاردة فيها.

(١) آدرار التمر اسم يطلق على آدرار موريتانيا.

المرحلة الأولى

من رحلة حنون إلى الاستقرار النهائي للفرنسيين في السنغال ١٨١٧ .

١- ما قبل هذا العصر – القرطاجنيون – المَرسِليُون والفرس.

٢- عشرون قرنا بعد ذلك، الجنَوِيُون – العرب – الإسبان، الفرنسيون والبرتغاليون.

٣- عصر المنافسات التجارية – هولندا وفرنسا وانكلترا.

٤- المحطات واتفاقيات الصمغ العربي.

١-ما قبل هذا العصر
القرطاجنيون - والمرسيليون - والفرس

في القرن الخامس للميلاد قبل هذا العصر قام الأميرال القاضي حنون القرطاجني بعبور الأعمدة الهرقلية(١) بحوالي ستين من المراكب ذات الخمسين مجدافا حيث طبع مروره بشاطئي إفريقيا بإنشاء مراكز تجارية وإقامته النصب القداسية.

فالهيكل الذي يتوج قمة رأس *Cantin* وأكادير، يحمل الاسم القرطاجني الذي لا يزال يحمل إلى اليوم.

ومن بعد ما سار مع شاطئ البرابرة حيث يوجد كثير من الرحل يرعون قطعانهم، قام بتأسيس قُرِيّة إزاء مصب *Delta* الساقية الحمراء(٢) حيث ظل القرطاجنيون يحومون حول بحيرة تحيط بها الجبال العالية الشامخة، يمنعهم منها سكان متوحشون يلبسون جلود الحيوانات، وحول نهر مليء بالتماسيح وأفراس النهر (الساقية؟)

وكانت مراكبهم المحملة بالعطور والخزفيات والبلاط المصري، تؤسس لتبادل تجاري مع سكان مدينة مجاورة، يدفعون في المقابل جلود الفيلة والسباع والنمور والعاج وأحيانا الخمر.

ثم استمر في طريقه إلى الجنوب بعدما عقد ميثاق صداقة مع هؤلاء السكان، حيث سلك ساحلا طويلا صحراويا ثم أدار إلى

(١) هو مضيق جبل طار.

(٢) حسب موسيي GseLL

الشرق، حيث وجد في نهاية أحد الخلجان - بعد يوم من الإبحار- جزيرة صغيرة سماها *Cerné* وأقام فيها مستعمرة.

وهذه الجزيرة حسب حساباته، تبعد من الأعمدة الهرقلية نفس المسافة التي تبعدها قرطاجة.

ثم ركب نهرا كبيرا يدعى *Chértès* حيث توجد جزرعديدة، ثم تابع سيره مندفعا نحو الجنوب إلى أن قارب بلاد الاتيوبيين والحيوانات المفترسة.

ونعتقد اليوم أن حانون بلغ في أعماق خليج غينيا جزيرة اكتشفها فيما بعد *Ferando po* عشرين قرنا بعد ذلك.

وليس من السهل قطعا تحديد النقاط التي ذكرها الأميرال القرطاجني، الذي دوّن قصته باللغة القرطاجنية ثم ترجمت من بعدُ إلى اللغة الإغريقية.

ولكن هنالك أمرا واحدا محققا؛ وهو أن الليبيين الذين تحدث عنهم وسماهم *Lixites* هم برابرة الساحل الموريتاني. ويمكن أن يكون نهر *CHRETES* نهر السنغال ومصب النهر ظنه خليجا، ويمكن أن تكون *Cerné* هي جزيرة *Saint Louis*. ولعل فكرة المنافسة ضد القرطاجنيين هي التي دفعت إغريق مرسيليا بهذا الصدد، حيث قام *Euthymene Le Massaliote* على غرار حانون برحلة بمحاذاة الشاطئ الإفريقي إلى أن وصل إلى نهر التماسيح وأفراس النهر، لكنه لم يستطع الابتعاد أكثر.

وفي القرن اللاحق قام الفارسي *Sataspe* المحكوم عليه بالدوران بإفريقيا، ليتمكن من النجاة من عقاب الموت المحكوم به عليه، بعبور الأعمدة الهرقلية. فاندفع شهورا عديدة مع شواطئي إفريقيا، ثم عدل عن إتمام رحلته ورجع إلى الخلف. وصُلب عند عودته، ولا نعلم إلا النزر اليسير عما كتبه قبل موته ولكننا نعلم أنه ربما بلغ خليج غينيا مثل حنون.

ويبدو أن الرومانيين عرفوا ما يسمى بـ *La Senégambie* وبالرغم من أن دخولهم إلى الصحراء الغربية ظل طويلا محل جدل واعتراض، فإن بعض الباحثين[١] يرى فيما يسمى *Ophiodos* "نهر الأفاعي والساقية الحمراء" وأيضا يمكن أن يكون *Darad de PtoLemee* وادي درعة، حيث كانت الغابة الأكثر غناء بالحيوانات في تلك الحقبة، كما تشهد لذلك النقوش الأثرية على الحجارة (لغة الآثار) حيث نجد رسوما لوحيد القرن والفيلة والنعام[٢].

إن جداول *PtoLémee* التي نشرت سنة ١٤٠ق م والتي تلخص مجمل المعلومات الجغرافية للقدماء عن العالم المعروف آنذاك، إن هذه الجداول لا تعطي عما يسمى إفريقيا الغربية أي معلومات، غير تلك التي كان مصدرها الرحلات التي ذكرناها أعلاه: بعض الأسماء على الساحل وبعض الأدلة على وجود نهر داخلي مع

---

(١) النقيب أفيلو إفريقيا الغربية في عهد أنتونيةْ مجلة الجغرافية التاريخية والوصفية ١٩٠٨م

(٢) شار د لانوسير: اكتشاف إفريقيا في العصور الوسطى

فيضانات موسمية، حيث توجد نفس الحيوانات التي توجد في نهر النيل.

هذه المعطيات الغامضة ظلت هي قصارى ما تعرفه الشعوب الأوروبية عن هذه الأصقاع من الناحية الجغرافية وذلك حتى القرن الثامن عشر.

وفي هذه المرحلة شهد النقل البحري تطورا ملحوظا، دفع ببعض المغامرين من البحارة إلى القيام بسلسلة رحلات بحرية مع شواطئ إفريقيا: الجنوِيون، الفرنسيون، وخاصة البرتغاليون، حيث أبحروا مع الشاطئ المغربي والموريتاني متقدمين شيئا فشيئا إلى الجنوب واكتشفوا جزر الكناري، ووادي نون، ووادي الذهب.

٢ - عشرون قرنا بعد ذلك
الجنويونون – والعرب – والاسبان – والفرنسيون والبرتغاليون

في سنة ١٢٩١م أي عشرون قرنا تقريبا بعد اكتشافات حانون و*Sataspe* غادر الأخوان *Vivaldi* الجنويان مدينة جنوا على متن قوارب شراعية حربية في رحلة استكشافية لمدة عشر سنوات، بهدف الدوران حول إفريقيا. وتعهد الأخوان باستثمار المبالغ التي حصلوا عليها عن طريق القرض خلال رحلتهما البحرية، وأن يُعيدا عند عودتهما المبالغ المقترضة، ويتناصفا الربح مع المقترضين، وتجاوزا أعمدة الدولة الهرقلية، وتجاوزا كذلك "رأس جيبي" (طرفاية) جنوب الأطلس ومن ثم لفّهما الصمت المطبق. وتفيد بعض المعلومات التي حُصل عليها-_عشرين سنة بعد ذلك- من قِبَل أحد أقربائهم، إمكانية افتراض أنهما غرقا في الشواطئ الموريتانية. وفي نفس الوقت الذي تتحدد فيه بعض المعلومات عن الشواطئ الموريتانية، فإن بعض الأفكار والمعطيات عن الأعماق الموريتانية تصل إلى أوروبا عن طريق العرب، هؤلاء البدو الرحل الناهبون الذين حولهم التطرف الديني إلى فاتحين، والذين تركوا وثائق مكتوبة كثيرة حول البلدان التي خضعت لسلطانهم، من مصر إلى المحيط الأطلسي.

فابن حوقل البغدادي الذي عاش في القرن العاشر، يبدو أنه جاب كل الممالك المسلمة في إفريقيا، حيث يذكر في كتابه"

المسالك والممالك" مدينة أوداغست عاصمة إمبراطورية البربر التي كانت تقع حسب الافتراضات إلى الشمال من تكانت[1]. كما يذكر غانا المدينة الكبرى في الصحراء مركز مملكة سودانية، وقد عُثر على بعض أطلالها غير بعيد من ولاتة.

وأخيرا يتحدث عن *Anlil* أو "آوليل" الذي يقع في جزيرة صغيرة أو شبه جزيرة من الشاطئ الإفريقي الغربي، حيث توجد مقالع مهمة من الملح الطبيعي وحيث توجد سلاحف من الحجم الكبير، وبأعداد كثيرة، فهذه المعطيات قد تعني حوض " أركين".

يأتي البكري قرنا بعد ذلك ليكمل معطيات ابن حوقل حول غانا وأوداغوست، ويتتبع غزوات المرابطين، ويشير إلى نيل غانا (نهر السنغال) الذي تمخر فيه مراكب كثيرة محملة بالملح لتُموِّن بهذه السلعة المهمة البقاع المحاذية للنهر.

ومن المناسب أيضا أن نذكر ضمن لائحة هؤلاء الرحالة والكتاب العرب الذين قدَّموا معلومات أولية عن موريتانيا:ابن بطوطة الطنجي الذي غادر سنة ١٣٢٥م سجلماسة، وهي مدينة مختفية اليوم، ولكنها ربما تكون قريبا من تافلالت، وعبَر بلاد البيضان المأهولة بقبائل البربر؛ مسوفة وبردامه، وزار مدينة "ولاتة" حتى وصل إلى النيجر. ونذكر ابن خلدون التونسي الذي ألف كتابا عن تاريخ البربر مليئا بالمعلومات المهمة.

---

(١) بل تقع مدينة أوداغست الشهيرة في شمالي شرق قرية تامشكط في ولاية الحوض الغربي في شرق موريتانيا حاليا.

ولكن الحصول على معلومات محددة حول نقاط على الشاطئ الإفريقي والصحراء الغربية، لم يتم إلا في القرن الخامس عشر الميلادي.

في هذه الحقبة كانت الشعوب المبحرة- وعلى رأسهم البرتغاليون- لا يبحثون عن اكتشاف بلاد جديدة فقط، ولكن أيضا لإنشاء مراكز تجارية بهدف استغلال ثرواتها.

في ظل حكم هنري الملاح قام البرتغاليون بمضاعفة عمليات اكتشاف البلاد الجديدة.

فقد وجد هذا الأخير فرصة الاتصال ببعض المور واليهود أثناء الاستيلاء على "سرته"، حيث زودوه بمعلومات عن الأقاليم البعيدة، فوضع حينئذ تصورا لمشروع استكشافها وغزوها.

وكان يبعث كل سنة مراكب عديدة لاكتشاف الشاطئ الإفريقي ماوراء رأس نون، النقطة الأخيرة التي وصل إليها الاسبان. ولكن هذه المراكب لم تتجاوز رأس بجدور، فلم يُقدم أحد من هؤلاء على المغامرة إلى ما وراء ذلك.

فرأسُ بوجدور كما كان يسمى حينئذ لأن « الماء كان يغلي فيه كما لوكان في علبة » كان يعتبر لدى البحارة الحدود التي لا يمكن تجاوزها [(١)] وقد كان أول تجاوز لهذه الحدود سنة ١٤١٦م على يد *Goncalho Velho* ولكن الدوران حول إفريقيا بطريقة منهجية لم

---

(١) شار د لانوسير: اكتشاف إفريقيا في العصور الوسطى

يتسن إلا للبرتغاليين سنة ١٤٣٣م إثر تربع الملك *Edouard* على عرش البرتغال.

فقد اكتشف الفارس المروض للولد الثاني (من أولاد الملوك البرتغاليين والإسبان) على بعد ٣٠ مرحلة من رأس بوجدور شاطئا توجد فيه بكثرة أسماك سلطان إبراهيم أو "الروجي"، ووراء ذلك على بعد ٢٠ مرحلة إلى الأسفل، اكتشف آثارا بشرية وتم تنظيم بعثة للاتصال بهؤلاء السكان المحيّرين، فانطلق فارسان سنة ١٤٣٣م إلى بعد ١٢٠ مرحلة جنوب رأس بوجدور في خليج صغير لا يزال يحمل اسم *Angra dos Cavalos* واشتبكا مع السكان الأصليين، ولم يتخلصا من الورطة إلا بجهد جهيد.

وفي السنة الموالية تعرف البرتغاليون على *Rio de Oro* الذي هو غير نهر الذهب المذكور في الخرائط القديمة*Alias Senegal* ، فهو عبارة عن قناة طويلة في اليابسة. وكانت تدعى خليج الذهب لأن فيها قد تم ابتياع مجموعة من البيضان كان البرتغاليون قد أسروهم مقابل كميات من الذهب التبر. وفي سنة ١٤٣٤م تجاوز *Gil Eannes* رأس بوجدور وتسع سنوات بعد ذلك تجاوز *Nuno Trustao* الرأس الأبيض واكتشف آركينْ وبعد ذلك بقليل من الزمن وصل البرتغاليون إلى جزيرة تيدرة واستولوا على ما يناهز ٢٠٠ أسير.

ولأن جزيرة آركين تشكل النقطة الوحيدة التي يجد الأوروبيون أنفسهم فيها مطمئنين وفي مأمن أن تطالهم يد الناهبين، وفوق ذلك

تمنح هؤلاء قاعدة صلبة لعمليات مضمونة قريبا من المنطقة المقفلة، فقد تم اتخاذ قرار باحتلالها، وبحماية من قلعة محصنة لاتزال آثار كتلتها شاهدة على صخر عال في الرأس الشرقي، تم إرساء نظام تجاري بين البيضان والبرتغاليين، حيث كان أولئك يأتون بالعبيد ويحملون الذهب للمقايضة بالقماش والقمح.

وكان العبيد الذين ينقلون سنويا في الغالب إلى البرتغال من السود وأحيانا من البيضان، الذين تأسرهم بالقوة حاميات برتغالية تجوب الشواطئ حتى مصب نهر السنغال.

وبعد ذلك بمدة يسيرة اندفع *Lanzarote* نحو الجنوب، حيث اكتشف على بُعْد ٣٨٠ ميلاً من الرأس الأبيض مصبا مائيا عريضا بعرض ميل تقريبا حيث يكون المد عاليا. فكان ذلك نيل السودان (صنهاجة) "سنغال" فتم اختطاف ٤ زنوج من الولوف كانوا في رحلة صيد بحرية، وعُلم من هؤلاء أن وراء هذا النهر شعوبا أخرى غير هؤلاء المساكين الزناة البيضان، شعوب شديدة سواد اللون، غلاظ جسام، ذوو قامات كبيرة، مكونون، يسكنون أرضا خضراء مليئة بالأشجار وخصبة، ويفصلُ هذا النهر بين السود والبيضان. وقد أعلن *Lanzarote* يومئذ فكرة عامة كانت مقبولة في ذلك الحين، مؤداها أن نهر السنغال فرع من *Gion* ينبع من جنة الأرض وبعد أن يسقي اثيوبيا ينقسم إلى فروع عديدة يعتبر النيل أهمها.

وفي سنة ١٤٤٤م انطلق أسطول بحري في اتجاه أرخبيل آركين. وكانت عمليات هذا الأسطول في صالح البحارة " لقد رضي الله

الذي يجازي على الأعمال الحسنة، بأن يعوض هؤلاء المبحرين عن المحن الكثيرة التي تعرضوا لها في طاعته، وأن يمنحهم أخيرا شيئا من النصر والتشريف مقابل تعبهم وأن يجزيهم على عملهم، بيد أنهم استولوا على ١٦٥ نسمة ما بين رجال ونساء وأطفال".

ولكن النخاسين البرتغاليين في السنة الموالية كانوا أقل حظا، فقد تعطل مركب *Gonzalo de Cintra* على شريط من اليابسة في الخليج الذي لا يزال يحمل اسمه وقُتل هو ورفاقه من قِبل السكان الأصليين، فكانوا أول ضحية من ضحايا الفترة البرتغالية.

ولكن هذا الإخفاق لم يثبط عزائم الولد الثاني، فقد بعث قوافل جديدة في السنة الموالية إلى نفس الموقع وتم تكليف *Antao Gonçalves* الذي يقود البعثات بعقد سلم مع البيضان والمتاجرة معهم وهدايتهم. وقد أخفق ولكنه نجح في أن يعود إلى البرتغال مصطحبا معه أحد هؤلاء البيضان لمقابلة الولد الثاني وكان قد ترك محله رهينةً أحد رفاقه واسمه *Joâo Fernandez* .

وفي سنة١٤٤٦ م انطلقت قوافل أخرى في اتجاه آركين وبعد أن تجاوزت آركين أبصروا شخصا على الشاطئ يلوح بالإشارة. وكان ذلك الشخص هو *Fernandez* الذي رجع من داخل البلاد؛ فقد وصل إلى وادان ولم يسلم من النهب طبعا ولكنه جمع معلومات محددة عن هذه الأرض المحرومة التي لا تنبت إلا أشجار جهنم.

وقبائل زناكة (صنهاجة) البائسة التي تعيش على الزواحف والجراد والألبان فلا لغتهم ولا كتاباتهم كتلك التي عند العرب. ولا يستدلون كما نفعل بالبحر إلا باتجاه الرياح واتجاه أسراب الطيور. والأرض قاحلة والمساكن فقط هي الخيام والألبسة من جلود الحيوانات(١).

ثم تم تنظيم بعثة أخرى مؤلفة من ثلاث قوافل من قبل *Gonzalo Pacheco* لتحط في آركين حيث انضمت إليها تسعة مراكب بحرية من أسطول *Madere*، وقام البرتغاليون بتمشيط الجزيرة فهرب البيضان تاركين ٥٠ منهم في قبضة البرتغاليين، ثم ساروا مع الشاطئ واستولوا على بعض العبيد ولكنهم فقدوا خمسة من أفرادهم.

وخلال السنوات الموالية باءت جميع المحاولات الهادفة إلى إقامة علاقات تجارية مع البيضان بالخيبة، وخاصة تلك المتعلقة بوادي الذهب، ولم تعدُ نتائج هذه البعثات أسْر مجموعة من العبيد.

ويمكــن تفــسير ذلــك بــسهولة بــأن العلاقــات بــين البيــضان والبرتغاليين كانت صعبة في تلك الظروف.

---

(١) وإلى الأمام هناك الحصباء المتوهجة بلمعان الشمس، الأرض التي لا رحمة فيهـا ولا شرف حيـث يقـيم أتعـس النـاس تحـت خيّم مـن وبـر الجمـال. (psichari) حلـة centurion ١٩١٣ .

ونستفيد من *Ca da Mosto*[1] بأنه منذ سنة ١٤٥٥م كانت آركين مركزا لنشاط تجاري مهم وخاصة في مجال النخاسة والذهب حيث كانت القوافل البرتغالية التي تحتكر هذا المركز تغدو وتروح على مدار السنة. ولم تكن هذه البعثات بدون مخاطر. فبالإضافة إلى مخاطر الإبحار والعلاقات مع السكان الأصليين، هناك مخاطر أخرى بسبب المنافسة الحادة بين البحارة من مختلف الجنسيات الأوروبية، فقد كانت المعارك فيما يبدو ضارية بين البرتغاليين السابقين في اكتشاف هذا الساحل والفرنسيين اللاحقين بعد ذلك.

" فمع البرتغاليين لا يمكن حصول تفاهم من قبل الفرنسيين لأن الحرب الصامتة ظلت تدور بين البلدين، فإذا ادعى الفرنسيون إمكانية الإبحار نحو غينيا فالبرتغاليون لا يقبلون ذلك، وإذا التقتْ المراكب في عرض البحر وكان الفرنسيون الأضعف هاجمهم البرتغاليون وأغرقوا مراكبهم. ومن هنا جاءت عمليات الانتقام الفظيعة ضد المراكب الحربية البرتغالية"[2].

وبعدما استقر البرتغاليون بقوة في آركين وبنوا قلعة محصنة حاولوا الولوج داخل البلاد، فالأسرى الذين أُسِروا في وادي الذهب قدموا معلومات محددة ومهمة عن نظام القوافل التي تعبر الصحراء محملة بالذهب ومسالكها وكانت هذه المعلومات مهمة وبالتالي يجب السيطرة على هذه القوافل.

---

(١) فينسياه في خدمة البرتغال)

(٢) السفير فينسياه مارينو كافلي

فتم تنظيم بعثات لتصل إلى وادان، نقطة مرور القوافل الأقرب إلى الساحل وإذا أمكن أن تصل إلى ممالك الداعية المبشر (جانه) *(Etats du pretre Jean)*.

" إن عزيمة الولد الثاني *MGR.l'infant* قوية في التعرف على بلاد السودان وخاصة النيل؛ يقول القواد فلنذهب في غزو إلى أن نصل إلى جنة الأرض.

خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر قام البرتغاليون بتأسيس مراكز تجارية غير تلك الموجودة على الشاطئ بين وادي نون والطرفاية وذلك في داخل البلاد وتوجد الآن أطلال هذه المراكز.

وفي ١٤٩٩م وبعد معارك عديدة تمكن البرتغاليون من إخضاع ملكة بوتاتا، التي كانت عاصمة ممالكها الواسعة مدينة تمنارت؛ هذه المدينة هي بلا شك قصر تمنارتْ الواقع على أحد فروع وادي درعة المتوسط.

ولهذا الإخضاع تعود الحقوق الإسبانية في *Santa Crux de Mar Pequêna* لأن كل هذه الأقاليم ستصبح خاضعة للإسبان في القرن التالي[١].

(١) الملازم شميت نقلا عن كادامستو قصة رحلات في الشاطئ الغربي لإفريقيا ١٤٣٥ .

وكان الإسبان قد تمركزوا في الكناري ودخلوا في نفس الفترة في مفاوضات مع قبائل البيضان (تكنة) الذين كانت تتوزع نشاطاتهم بين الغزوات المربحة والقوافل السلمية والتجارة.

وكان الفرنسي *Normand Jean de Bethencourt* الحاكم في خدمة الإسبان على الكناري أول من عقد علاقات تجارية مع البيضان في وادي درعة. وبعد ذلك بزمن قليل قام خلفه *Diégo de Herrera* بتأسيس مركز تجاري قُبالة جزر الكناري وسيهدم هذا المركز خمسين سنة بعد ذلك.

أما وادان المعرس الصحراوي للقوافل والأقرب للشاطئ، بدا وكأنه النقطة القصوى التي وصل إليها البرتغاليون خلال ولوجهم بحثا عن طرق القوافل، حيث كانوا يحلمون بإمكانية إعادة توجيه تجارة الذهب والعبيد التي كانت تتم بين بلاد السودان والمغرب لصالحهم.

وقد ترك البرتغاليون في هذه النقطة بعض آثار مرورهم ومن ثم كان حلم *Ca da Mosto* بتجارة فريدة في الذهب بين تجار قادمين من الشمال وسود قادمين من أرض السودان.

فالتاجر بعد أن يعبر الصحراء ويصل إلى بلاد الذهب، يضرب قبابه داخل حظيرة (زريبة) ويأخذ معه خارج الحظيرة أنواعا من السلع التي يحمل معه (حديد، خواتم نحاس، مجوهرات إلخ) ثم ينسحب ويتقدم السود ويضعون إزاء السلع التي يطلبونها كميات من

حُبيْبات الذهب ويبتعدون بدورهم إلى الخلف.

فإذا كان البائع يقبل المعاملة المقترحة يأخذ الذهب ويترك السلع للمشتري الذي سيأتي ويأخذها بعد ذهاب البائع. وإلا فإن البائع يستعيد سلعه ويستعيد الأسود ذهبه إلا إذا رضي بزيادة حُبيبات ذهبية إضافية.

ولكن أين يوجد هذا البلد الأسطوري المسمى بلد الذهب الذي تبحث عنه كل الشعوب المبحرة؟ في أي مكان بالتحديد؟ وفي أي الظروف يمكننا الحصول على هذا المعدن النفيس؟.

ولم يتمكن *Ca da Mosto* من معرفة ذلك. ويجيبه العرب والبربر بأنهم لا يعرفون، فالتجار القادمون من السودان لا يريدون إعطاء أي معلومات عن هذا الموضوع، ويحتمل ألا يكون هؤلاء على علم من شيء في ذلك، فهم بلا شك ملزمون بالتوقف في الأسواق البعيدة من بلاد إنتاج الذهب.

فهم لكي يُبينوا غرابة هذا النوع من التجارة بين التجار والسود، يكتفون بالقول بأنها "أعراف طويلة وقديمة" مع ما تحمله العبارة من قدرية شرقية.

ولا تزال بقايا مؤسسة البرتغاليين في وادان مشاهدة في حفرة وادان على بعد ٢٥ كلم إلى الشرق من قصر وادان.

وهناك آثار أخرى لدخولهم إلى موريتانيا لا تزال قائمة وخاصة قرب آزوكي على بعد ١٠ كلم إلى الشمال من مدينة أطار *ATAR*،

حيث كانت توجد هناك قرية فيما يبدو، وحيث توجد آثار حظيرة يُقدر طول أحد جوانبها ب١٠٠متر لا تزال مرئية.

وحسب الملازم *Schmith*[1] فإن هناك روايات شعبية أو محلية تعزوا إلى الأوروبيين حفر بئر "أرسلْ" في تيرس وهذه البئر فعلا تتميز عن باقي الآبار بصغر قطرها وجودة بنائها.

وفي جهة أخرى غير بعيدة من تنواكا قريبا من بئر العطْطبه يشير هذا الملازم (الضابط) إلى حصنين خماسييْ الأضلاع شبيهين بالحصون التي نبنيها نحن في بعض مراكزنا، ويبدُوَان شبيهين فعْلا بالعمل الأوروبي، ويشير كذلك إلى ركام من الحجارة المكدسة الناتجة فيما يبدو عن تهدم قلاع أو مبان.

وهذه المراكز التجارية إنما تشير إلى المراحل المتلاحقة للبرتغاليين إبان دخولهم إلى السوق الصحراوي الكبير وادان.

فكم كانت مدة بقائهم هناك، وعلى أثر أي حدث كان جلاؤهم؟ نحن لا نعلم شيئا عن ذلك ولكن الروايات الشفهية الشعبية تذكر أن السلطان سُني علي *Sonni Ali* كان قد سمح لبعض النصارى بالإقامة بآدرار، ولكن هؤلاء لم يبقوا هنا أكثر من سنتين.

فكل الأقاليم التي كان يحتلها البرتغال أصبحت فيما بعد أقاليم إسبانية في سنة ١٥٨٠م عندما تحول التاج البرتغالي إلى رأس فيلب الثاني بعد انتصاره على *Don Antoine de Crato* وربما كان ذلك

(١) الصحراء الغربية: نشرة شركة الجغرافية ١٩١٣

هو ما يفسر أن التقاليد المحلية لا تتحدث عن البرتغاليين وإنما تتحدث فقط عن الإسبان.

ولم تقتصر نشاطات هؤلاء فقط في آدرار وإنما امتدت إلى الجنوب، فالعلاقات التجارية الأولى التي عُقدت بين الأوروبيين والترارزة كان البرتغاليون أول من عقدها منتصف القرن السابع عشر مع الأمير هدي بن أحمد بن دمان الذي أخضع البرابرة بعد أن انتصر عليهم في الحرب المشهورة والمعروفة بـ شربُبّ، ومن ثم ضمن الهيمنة للعرب أو بني حسان.

وهو الذي على شرفه تم افتتاح المرسى الخطيرة، المكشوفة، الواقعة على بعد ٢٠٠كلم شمال سان لويس، والتي بدأت فيها عمليات المبادلة التجارية وسُميت باسمه *Petit Port Addi* ثم أصبحت *Portendik* وقد فقدت هذه المرسي الخطيرة حيث خطورة الأمواج العالية وإمكانية الارتماء على الضفة، مما لا يسمح للقوارب بالاقتراب من الشاطئ، فقدت أهميتها عندما تمكنا من الاستقرار في سان لويس وبعد ذلك في سنة ١٦٨٠م قام *La Courbe* ثم من بعده بقليل *André Brue* بافتتاح المرافئ الأولى على النهر، مرفأ الصحراء في بلاد الترارزة في منتصف الطريق بين سان لويس و*Podor* ومرفأ *le Coq* ومرفأ *Terrier Rouge* على شاطئ البراكنة.

٣- عهد المنافسات التجارية
هولندا، فرنسا، انكلترا

لقد كان أول تأسيس فرنسي في السنغال سنة ١٦٢٦م أيام قامت الشركة النورماندية والتي أنشئت بتحريض من *Richelieu* بإنشاء مركز تجاري في كتْ أندر في الجزيرة المعروفة حاليا بـ سان لويس من أجل استغلال إنتاج السنغال وبلاد البيضان.

وفي سنة ١٦٣٨م وصل الهُولنديون إلى آركين، وكانوا على حرب مع الإسبان في ثلاث مراكب بحرية، ونزلوا بغير عناء واستولوا على القلعة واستسلمت الحامية بعد مقاومة خفيفة.

وبعد ما أصبحوا أسيادا لموقع آركين قام الهولنديون بتحصين الموقع وتطوير تجارتهم.

وفي سنة ١٦٦٥م استولى الانكليز بدورهم على الموقع ولكنهم لم يثبتوا أمام عودة الهولنديين بقوة. فقد وسع هؤلاء علاقاتهم أكثر مع شيوخ البيضان داخل البلاد وبذلوا جهودا كبيرة من أجل استقطاب تجارة الصمغ العربي الذي كانوا يدفعون فيه أسعارا باهظة بهدف إفلاس الشركة الفرنسية في السنغال.

وتذمراً من هذا المسلك حصلت الشركة الفرنسية بالسنغال سنة ١٦٧٨م على قرار بإرسال بارجة بحرية يتألف طاقمها من ٤٥٠ فردا، يقودها *Ducasse* في مهمة للاستيلاء على آركين.

وبما أن *Ducasse* لا يملك القوة الكافية لمواجهة الهولنديين المتحالفين مع البيضان، فقد ذهب إلى السنغال للبحث عن تعزيزات، فجاءت التعزيزات على يد *Jacques de Fumechon* المدير العام وقائد الشركة[1] تسعون فردا ودارت العمليات في الموقع واستسلمت الحامية وأبحرت في اتجاه هولندا. ولكن الشركة الفرنسية لا تعرف كيف تستفيد من مزاياها، فأخذت المدافع والذخيرة والسلع وغادرت الموقع مكتفية بتحريم التجارة على الشاطئ.

وفي سنة ١٦٨٥م قام الهولنديون بمحاولة لإعادة مركزهم التجاري بحماية من *l'Electeur de Brandebourg* وأخفقت هذه المحاولة الأولى، ولكن محاولة أخرى مدعومة بالحرب التي لفتت أنظار فرنسا عن أقاليمها البعيدة كانت أكثر حظا، فقد تمت إعادة تأسيس المركز. وفي سنة ١٦٩٨م تم توقيع معاهدة *Ryswick* التي بموجبها يبقى هذا المركز تحت سلطة الهولنديين و*l'Electeur* [2].

وفي سنة ١٧٢١م حاولت الشركة الفرنسية بالسنغال استعادة آركين من الهولنديين حيث سلحت ٣ مراكب بحرية حربية وفرقاطة من ميناء *Lorient* تحت قيادة *Périer de Salvert* الذي قام بالهبوط في الجزيرة والاستيلاء على القلعة. ولكن في نفس الفترة قام أمير

---

(١) ريني باسي: بحوث تاريخية حول البيضان.

(٢) على خارطة أطلس * يمكن أن نقرأ إزاء آركين هذه الملاحظة أطلال قلعة * ١٦٨٥ إلى ١٧٢١ (الملازم اشميت الصحراء الغربية)

الترارزة أعلي شنظورة بالسماح للهولنديين بالإرساء في مرفأ هدي وتحصين مواقعهم.

ولكن سوء التصرف والطيش من الحاكم الفرنسي *Duval* في آركين أثار ثائرة البيضان ضده، فقام الهولنديون بمساعدة أعلي شنظورة بمحاصرة قلعة آركين فما لبثت أن استسلمت.

وبعد ذلك بسنتين، حاول *Froger de la Rigaudière* على رأس أسطول استعادة آركين، فاحتل مرفأ هدي ووقع معاهدة مع أعلي شنظورة يمنح بموجبها الشركة الفرنسية احتكار التجارة في هذا الجزء من الشاطئ مقابل دفع بعض الرسوم.

وبعد ذلك بقليل كتب أعلي شنظورة إلى *Brûe* حاكم السنغال ليبلغه رغبته في السلم والعيش بسلام مع الفرنسيين، ويطلب منه تمكين رعايا الترارزة الذين هم مع الهولنديين في آركين من الإذن بالانسحاب.

ولكن هؤلاء لم يطيعوا أمرالأمير فانبعث أسطول يقوده *Perier de Salvert* سنة ١٧٢٤م إلى آركين فقتل البيضان واستسلم الهولنديون.

وانتهز *Brûe* فرصة انتصاراته ليطور علاقاته مع شيوخ البيضان، ولغاية وصول*Brûe* إلى السنغال أي في نهاية القرن الثامن عشر كانت مؤسساتنا في الشاطئ الغربي الإفريقي في خمول وتدهور مستمر ولكن تحت قيادته هو تغيرت الوضعية تماما إلى الأحسن.

André Brûe الذي بدأ حياته إداريا مستنيرا وفي نفس الوقت مفاوضا محنكا نشطا؛ شرع في تطوير مراكزنا التجارية التي تولى إدارتها لمرتين من سنة ١٦٩٧- ١٧٠٢ ثم من سنة ١٧١٤- ١٧٢٤ وبدأ بعد وصوله بقليل بإبرام اتفاقيات مع أمير الترارزة لتنظيم التجارة ونظام المرافئ البحرية، والمراكز التجارية التي تتم بها المعاملات التجارية بين تجارنا وقوافل البيضان.

وهذه المرافئ التي كانت ممتدة مع طول نهر السنغال كان عددها ثلاثة مرافئ، "دوناي" *Donaye*، "لكوك" *Le Coq* قريبا من "ريشاطور" *Richard Toll* و"تاريا روج" *Terrier Rouge* غير بعيد من "دكانا" *Dagana* .

فالمبادلات التجارية لا يمكن أن تتم إلا في هذه النقاط المحددة، وفي فترات محددة ويتعهد الأمير بضمان سلامة هذه المرافئ وحرية التجارة. وكان يأخذ مقابل ذلك في شكل رسم التصدير ثمن ١/٨ قيمة هذه السلع، وكانت تسمى هذه الضريبة: *Coutume* [١].

وبهدف تحويل النشاطات الهولندية في ميناء هدي إلى صالح مؤسساتنا قام *Brûe* بمحاولة خاسرة للأسف بإنشاء مركز على شاطئ بحيرة "كايور" *Cayor* ولم يتمكن من صعود خليج "كارك" *Garak* المليء بالوحل والنباتات القصبية، فكانت تلك أول محاولة

(١) عبارة كوتيم عبارة نورماندية قديمة تعني الرسم الجمركي أو ❋ لدى الانكليز.

منا لدخول أراضي البيضان شمال نهر السنغال سنة ١٧١٥، وخلال رحلته هذه قام "أبري" *Brûe* بعقد اتفاقيات ليس فقط مع الترارزة ولكن أيضا مع *les Darmancours* (إدوالحاج) ومع البراكنة الذين كانوا يأتون بصمغهم إلى مرفأ *Terrier Rouge*

أما آركين الذي غزوناه ثانية سنة ١٧٢٤ فقد ظل تحت سيطرتنا حتى عام ١٧٥٨، حيث استولى الانكليز على مستعمرتنا بالسنغال خلال حرب السبعة أعوام. وقد عادت إلينا جزيرة كوري سنة ١٧٦٣ وبعد ذلك بسنوات أي سنة ١٧٧٩، أعاد *Lauzun* احتلال سان لويس وخلال احتلالهم للسنغال قام الانكليز بتدمير مركز آركين وميناء هدي بدل التمسك بهما وإرغام البيضان على استخدام مرفأ واحد فقط، هو مرفأ الصحراء على النهر الذي أصبح مركز نشاطاتهم التجارية في السنغال.

ومن أجل إظهار نيتهم في عدم استخدام المراكز الموجودة على الشاطئ الموريتاني، والتي كلف إنشاؤها كثيرا، قام الانكليز بتدميرها وأقاموا مراقبة بحرية تضم عددا من القوارب الحربية، مكلفة بقصف كافة المراكب البحرية التي تقترب من تلك النقاط، بغض النظر عن جنسيتها حتى ولوكانت انكليزية[١] .

---

(١) بول مرتي: المحاولات التجارية الانكليزية في مناء هدي وموريتانيا نشرة تاريخ المستعمرات الفرنسية ١٩٢١م

وبالإضافة إلى الرسوم التي تدفع لشيوخ البيضان حاول الانكليز تجسيد تعلقهم بهم من خلال منح تشريفات وهدايا خاصة بهم إذا قدموا إلى سان لويس.

فالأمير أعلي الكوري تمت تحيّته بسبع طلقات مدفعية وأمير البراكنة بخمس والباقون بثلاث.

وكانوا يُمنحون علاوة على ذلك لضيافتهم اليومية ذبائح من البقر والقمح وقصب السكر والخمر والسكر والخبز، ولكن بما أنهم متسولون بالطبيعة[1] لا يسمح لهم بالإقامة أكثر من الوقت اللازم لتسوية معاملاتهم[2]، حتى ولو رغبوا في الإقامة أكثر في سان لويس.

---

(١) ريني باسي: بحوث تاريخية حول البيضان.

(٢) في سنة ١٧٨٧ رسم he Chevalier de Boufflers صورة خيالية من الاطـراء للأمـير اعل الكوري، فيها يركز على هذا الاتجاه المغضب للطبيعة البيضانية:

" إنه رجل قوي وشـديد وورع وديـن في نفـس الوقتـت ولا يحـب إلا النـشاء والـواعظين ويمضي حياته ـ ما أمكنه ذلك ـ في بودور بعيدا عن محلته وعن أعداءه. ويـسكن بيتـا رديئا مع زوجة رئيسية وثلاث أو أربع سيدات شرفيات لا يحترمهن أحيانـا، مـشغول بنصائح مرابطيه الذين يتركونه يرتكب حماقاته وجهالاته مادام يحمل علـى كتفـه تلـك التمائم ومادام يصلي كل يوم ٨ إلى ١٠ صلوات قاسية على جلد ضأن يتم بسطه تحت قدميه. والمتبقي من وقته، يمضي في الحديث حول مصالح عرشـه المزعـوم ونتيجـة ذلك الحديث هي أن يطلب الهدايا والمساعدات التي لا يحصل فيهـا إلا علـى الأقـل وأن يستقرض أثلاث أو أربع النسيج والمدافع والبضائع الأخرى بحجة القيام بحـرب، ولكنه يوزع ذلك على المحيطين به، وجهه جميل نوعا ما يشبه وجهـا مقدسـا، يميـل لونه كثيرا إلى السواد؛ إنه ملتحف أكثر منه لابس بصورة رسمية، وغالبا ما يكون لبسه البياض. إنه يعطي ملامح ملك خامل وملك طماع.

ثم تأتي معاهدة *Versailles* بتاريخ ٣ سبتمبر ١٧٨٣ لتعترف لفرنسا بحق السيادة وحدها على الشاطئ الأطلسي من الرأس الأبيض إلى مصب "سالومْ" *Saloum* ومنذ ذلك التاريخ أصبحت لنا حقوق دبلوماسية على موريتانيا والسنغال.

ومنذ اليوم الأول للاحتلال الجديد، وبدلا من اتباع سياسة الانكليز الحكيمة بتركيز التجارة في نقطة واحدة على النهر، قمنا بإعادة تأسيس مراكز آركين وميناء هدي، وتم قبول مبدأ المنافسة التجارية بيننا وبين الانكليز بموجب بند من بنود المعاهدة يعترف لهم بالحق في ممارسة التجارة في المنطقة، دون أن يكون لهم الحق في إرساء مركز تجاري ثابت على الأرض. وقد تم شراء هذا الحق التجاري فيما بعدُ مقابل التنازل لهم عن مؤسسة " ألبريده" *Alberda* في غامبيا سنة ١٨٥٧ .

وبعد ذلك بقليل تدهورت الأوضاع الداخلية للبلد الأم؛ الحرب البحرية والمنافسة الخارجية، فانهارت التجارة الداخلية ودخلت المستعمرة السنغالية المسكينة في أزمات عميقة شهدت ازديادا سنة ١٧٩٨ مع الحرب بيننا وبين بيضان الضفة اليمنى لنهر السنغال.

فقام الانكليز من جديد بمحاولات للاستيلاء على مؤسساتنا، فانتُزعت منا جزيرة "كوري" *Gorée* سنة ١٨٠٠ وإذا كانت " سان لويس" لم تسقط في نفس اللحظة بعدُ، فقد كادت لولا عقد معاهدة مستعجلة مع البيضان بعد كفاح عقيم دام سنتين، مكننا من التصدي للهجمات البيضانية بمقاومة شديدة. وفي سنة ١٨٠٩ استولى

الانكليز مجددا على المستعمرة بكاملها، ولم نستعدها إلا في سنة ١٨١٤ بموجب اتفاقية باريس التي تقضي بأن يُعاد إلى فرنسا مراكزها التي كانت تملك منذ ١يناير١٧٩٢. ولكننا لم نتمكن من إعادة احتلالها إلا في سنة ١٨١٧، فمركز آركين وميناء هدي كانا قد تهدما حتى لم يبق من هذا الأخير شيء.

❋ ❋ ❋ ❋

٤- المرافئ والتجـــــارة

إن أوائل المبحرين الذين وصلوا إلى الشواطئ الموريتانية لم يكونوا يبحثون فقط عن الذهب والعبيد.

فكان الهولنديون أول من جاء بحثا عن الصمغ العربي الذي كان يستخدم في تصميم وصناعة القماش المصبوغ، والذي كان الهولنديون يحتكرون صناعته. وفي سبيل احتكار هذه المادة كانوا يقاومون منافسهم بعنف، من أجل توجيه تجارة هذا المنتج الثمين في المرافئ لصالح مراكزهم التجارية الشاطئية؛ كانوا لا يخافون من مضاعفة سعر هذه المادة خلال سنوات قليلة.

وفي القرن الثامن عشر كان الصمغ المادة التجارية الأساسية والوحيدة في موريتانيا قد شهد تطورا كبيرا في الأسعار بسبب هذه المنافسة حتى زاحم الأسلحة اليدوية.

وكان البيضان يظنون أن الصمغ يعتبر المادة الأساسية للبيض، بل إنهم يستهلكونه كغذاء. فقد تم تسرب هذا الخطأ بالطريقة التالية: في معاهدتين وُقّعتا بين إدولحاج والبراكنة من جهة وبين المواطن جان بابتيستْ *Jean Baptiste Léonard Durand*❋ « **صاحب معاش الملك**»، هذه العبارة ترجمت للبيضان كما يلي « **إلى الذي يمنحه الملك الغذاء.** »

فالصمغ الذي تفرزه شجرة معروفة بشجرة القتاد كان يستخدم في تحضير الأصباغ والدهان والطلاء وتجهيز عُدة الأقلام وصنـــاعة

شراب الصمغ وخاصة تصميغ النسيج القطني.

وفي أيامنا أصبحت تجارة الصمغ التي كانت مزدهرة وحصلت من أجلها حروب ضارية بين العديد من الشعوب البحرية لمدة أكثر من قرن من الزمن، أصبحت غير ذات أهمية كبيرة، فهذا المنتج الذي كانت المرافئ الأساسية الثلاثة تستقبل منه حتى منتصف القرن ١٩ ما بين ٣٠٠٠- ٤٠٠٠ طن في المتوسط قد فقَد الآن جزءا كبيرا من قيمته، فقد تم استبداله في كثير من استخداماته بمادة الدكسترين *Dextrine* ؛ مادة صمغية تستخرج من النشاء.

وقد كانت تتم كل سنة شحنات حقيقية من الصمغ بموجب الاتفاقية المنظمة لتجارة الصمغ ولكن الظروف التي تكتنف هذه التجارة لا تسمح لها بنمو طبيعي.

فالصمغ الذي يلتقط في الصحراء من قِبل البيضان يحمله هؤلاء إلى ضفاف النهر، وحسب العرف الذي كان سائدا في السنغال منذ مجيء الأوروبيين، فإن المبادلات تتم في معارض تقام في فترات محددة من السنة، وفي ثلاثة مواضع مختلفة تسمى المحطة أو المرفأ (*Escales*)[1] وخارج هذه المواضع يمنع ممارسة أي تجارة تحت طائلة أشد العقاب. ولم يكن من حق الأوروبيين أنفسهم دخول هذه المواضع وإنما عليهم أن يتجهوا إلى أحد السود أو المولدين الذين يُدعون الوسطاء ليقوموا لهم بمهمة الوساطة.

---

(١) الصحراء الأكوك قريبة من ريشار دتول وترياروج قريبة من دكانا

وفوق ذلك كانوا ملزمين بدفع رسوم باهظة جدا وجائرة في شكل رسوم تصدير.

وهذه الرسوم تعود إلى عهد قديم جدا، فمختلف الشعوب التي كانت تأتي لشراء الصمغ كانت تبحث عن سبيل لاحتكار شرائه، وكانت هذه الرسوم تهدف إلى:

١- تشجيع حصاد الصمغ من قبل المرؤوسين الذين يمكن أن يتركوه يضيع.

٢- عدم بيعه إلى المنافسين من الشعوب الأخرى.

٣- ضمان أمن القوافل المحملة به حتى تحط رحالها بمراكز الشحن.

٤- عدم رفع الأسعار بطريقة تحكمية.

٥- عدم نهب القوارب التي تحمل هذا المنتج.

وهذه الشروط لم تستوف في يوم من الأيام كما ينبغي « فملوك البيضان الذين هم المسئولون عن ضمان أمن المعارض يتقاضون مبالغ باهظة مقابل خدمات لا يوفرونها » ..

وقد حصلنا على معلومات مهمة عن التجارة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر من مهندس كان حينئذ مقيما بالسنغال، واسمه كولد بري *Goldberry* إذ يقول: " تمتد فترة

الحصاد ستة أسابيع فإذا تكونت كُتل من الصمغ وجمع كل شيء، يُتأهب للرحيل في اتجاه شاطئ النهر.

"يُحمل الصمغ على ظهور الجمال أو الثيران، حيث يحمل الجمل في العادة ما بين ٤٠٠-٥٠٠ ليبرة ويحمل الثور ١٥٠ ليبرة، ويُعبأ الصمغ داخل أكياس من جلود البقر المدبوغ.

"وكميات الصمغ التي يتم حصادها وتعبئتها لا يتم شحنها مباشرة على ظهور الدواب لتحملها إلى شاطئ النهر؛ إلى المرافئ التي يتم فيها البيع؛ فشيوخ القبائل وحدهم هم الذين يذهبون إلى هذه المحطات مصحوبين ببعض كبار شخصيات البيضان ممن هم في الغالب أقارب الملوك أو يدعون أنهم كذلك، أو أقارب زوجات الملوك ويتبعهم حرس من الرجال المسلحين.

ويتم التعامل مع ملك الترارزة ورجالها الكبار فيما يخص مجموعاتهم ويتم التعامل مع ملك البراكنة وكبار رجالها ورجال *Darmancours* إدولحاج فيما يخص هاتين القبيلتين مجتمعتين.

وفي انتظار حصول اتفاق بين شيوخ القبائل الذين يتفاوضون مع التجار لتحديد سعر بيع الصمغ، تقوم معسكرات البيضان بشحن الصمغ والتوجه إلى الضفة، متوقفين على بعد يومين منها، حتى تظهر نتائج المفاوضات بين رؤسائهم ووكلاء الحكومة في السنغال والتجار الفرنسيين.

وهذه المفاوضات الأولية تأخذ وقتاً طويلاً ونقاشاً وكثيراً من العراقيل. فليست هناك حيلة من الحيل إلا ويعرف البيضان كيف يستخدمونها، ولا نوع من أنواع الكذب والخداع إلا ويُحسنون اختلاقه من أجل الحصول على ثمن أغلى من ثمن البيع في السنة السابقة. فالملوك والشيوخ يعرفون مائة نوع من المكر والخداع، ومائة ألف نوع من الحيل من أجل انتزاع هدايا ورسوم أهم بالنصب والاحتيال. ويستخدمون اللطافة أحيانا، والتهديد أحيانا أخرى ودعاويهم المثيرة للسخرية والمفرطة تتجدد كل سنة بحذاقة وتحيّل همجي، من أجل وضع العراقيل والمشاكل خلال هذه المفاوضات.

فالعمال والوكلاء المكلفون بتجارة الصمغ والتجار الذين يذهبون إلى محطة الصحراء و"بودور" من أجل الشراء، هم وحدهم الذين يعلمون ما في هذه المعارض البربرية من مشقة وهمٍّ وكدر يجب تجرعه بضجر.

((فالبيضان لديهم بعض الهدوء المشوب بالمكر والخبث يجعل البيض (الأوروبيين) تحت المطرقة؛ فصبرهم وهدوء أعصابهم يشوش عمل الأوروبيين الذين يريدون إبرام الصفقات بحدة ونفاد صبر بينما يريد البيضان الحصول على بعض الهدايا والأرباح خلسة. فيراوغون كثيرا قبل اتخاذ القرار.

وحينئذ فإننا نتسلح بالصبر نحن أيضا، ونأخذ حذرنا ونُصبح بدورنا متصلبين في الرأي وعنيدين. ولكننا في النهاية ننسجم.

فإذا تم الاتفاق بين كافة الأطراف يعود شيوخ البيضان إلى معسكراتهم ويعلنون إلى قبائلهم بأن الموسم سيتم افتتاحه.

وتبدأ المعسكرات في الرحيل وبعد أيام يكون النزول على ضفة النهر.

وفي المحطة أي المرفأ الذي أطلق عليه الفرنسيون اسم الصحراء، والذي هو فعلا أحد الأماكن الأكثر جفافا والأكثر تصحرا، يقام معرض بيع الصمغ. وتوجد هذه المحطة على ضفاف النهر، في منتصف المسافة الفاصلة بين جزيرة سان لويس وقلعة بودور حيث يستجلب الترارزة كافة كميات الصمغ التي تنتجها غابة الساحل.

وهنا يرى الناظر سهلا منبسطا إلى منتهى الرؤية، متكونا من الأتربة الرملية البيضاء المتحركة، لا ترى بقلة واحدة ولا نبتة واحدة ولا شُجيرة واحدة تقطع أو تنوع هذه الرتابة المعتمة، وهذا التماثل الممل لهذه الخلاء الفسيحة، حيث لا توجد قطرة من المياه الصالحة للشرب، فنصبح مضطرين إلى إرسال زوارق إنقاذ محملة بالبراميل، لتعبئتها من النهر على بعد مراحل عديدة مع علو النهر، ذلك أنه في محطة الصحراء تكون المياه مالحة لأن البحر يرتفع إلى مياه النهر إلى غاية جزيرة ديكْ التي تقع على بعد مرحلتين إلى الأعلى. والتربة في الصحراء شديدة صغر الحصباء وشديدة التحرك، بحيث لايمكن حفر الآبار بها دون أن يختلط الماء بالحصباء.

وفي صباح يوم القدوم تسمع أصواتا غامضة لجيوش البيضان المتحركة، تَلُفُهم غمامة من الغبار، وفي منتصف النهار يكون هذا السهل الفسيح المحزن في محطة الصحراء ـ حيث ينتهي مد البصر دون أن تكتشف كائنا حيا ـ قد امتلأ بالرجال والنساء والجمال والجياد والثيران والأغنام.

وكل الدواب مغطاة بأغصان أشجار الصمغ مع أوراقها، لحماية الدواب من لهب الشمس المهلكة، وحماية الصمغ الذي تحمله هذه الدواب.

وبعض من هذه الدواب يحمل الخيام والأمتعة، وعلى دواب أخرى تتربع النساء ويركب الشيوخ الجياد الجميلة، وهناك جمال مختارة مجللة تحمل نساء الملوك والأمراء في هوادج مغطاة في شكل مقصورة. وهناك فرقة من البيضان مسلحة بالبنادق والرماح ذات مرمى بارتفاع ٨-١٠ أقدام تشكل الحرس لهذه المعسكرات المتحركة، وتحاول إرساء النظام في هذا التنوع المتوحش ولكن هيهات! وأنى لهم أن ينجحوا في ذلك.

الهواء يعكس صدى الأصوات المختلطة لهذا الجم الغفير من الرجال والنساء والأطفال والحيوانات.

فمن الصعب إعطاء فكرة صحيحة عن هذه الفوضى وهذا الصخب لهذا التجمع الغريب، وإعطاء وصف لهذا الغموض الذي يهيمن على هذا المعسكر.

وإذا تجمع البيضان على ضفة النهر جميعا وضربوا خيامهم، تسمع طلقة من مدفع كبير كإشارة إلى الإعلان عن بدء افتتاح الموسم.

أنواع التقزز والاشمئزاز ونفاد الصبر، وأنواع الضجر اللازمة من أجل الحصول على الصمغ لا يمكن عدها ولا حصرها.

والوكلاء والتجار دائما متسرعون ويحاطون بكثير من البيضان الأجلاف، أصحاب الغدر بالطبيعة، ويجب أن يتحلوا ببرودة الأعصاب إزاء الشتائم والسباب والتهديدات والصبر على الحناجر المرفوعة بالتهديد والتصرفات المهيجة والكلام المهين الشائن، ويتحملوا كذلك المضايقات والإزعاج الدائم من الملوك والأمراء والجشع الذي لا يسد لنسائهم. وإرهاق كل هؤلاء المتوحشين.

والتاجر (صاحب المركب) لم يعد سيد مركبه، فقناطر السفن التي تحمل الصمغ ولا تتجاوز حمولتها أبدا مائة طن على الأكثر، مغطاة بالبيضان المتراكبين بعضهم على بعض على مقدم هذه السفن ومؤخرها مربوط بالدربزون وتحمي هذه السفن أسلحة خفيفة وبنادق منفرجة. وفريق من طاقمها تحت الأسلحة.

وأخيراً فإنه سيكون حديثنا طويل الذيل إذا دخلنا في تفاصيل أنواع المرارة والكمد التي يتعرض لها هؤلاء؛ الذين يحاولون تزويد أوروبا بالصمغ من نهر السنغال.

وعلى كل حال فإن كان البيضان يتظاهرون خلال معاملاتهم بالخشونة والكذب والخداع فإنه يجب أن نعترف لنكون عادلين بأن هؤلاء التجار البيض كانوا يستخدمون في حق أولئك وسائل غير مشروعة أحيانا. وإليكم ما يذكره "كولدباري" *Goldberry* في هذا الصدد: إن الميزان الذي يُستخدم في بيع وشراء الصمغ هو عبارة عن حوض خشبي كبير يتم وضعه على قنطرة السفينة التي تحمل البضاعة وهذا الحوض ذو طاقة تصل سعة وزنها إلى ألفي ليبرَه ويسمي البيضان هذا الميزان بالقنطرة وقد تم تبنى هذه التسمية التي طبَّعها البرتغاليون والاسبان في الأقاليم الجنوبية للصحراء. فبيع الصمغ وشراؤه يتم بواسطة القنطرة على نهر السنغال.

فكل سفينة تحمل الصمغ لديها قنطرة مثبتة على متنها وهي عبارة عن مقياس وزني كما ذكرنا في شكل حوض كبير مثقوب في أسفله بفتحة مربعة الشكل بطول ١٨ بوصة في عرض قدم واحد وهذه الفتحة توصل إلى ما يسميه البحارة مقبضا أو خرطوما أي أنبوبا من نسيج قطني مغطى نازلا إلى أسفل القنطرة بواسطة قطعة من الخشب منزلقة فإذا امتلأت القنطرة يتم سحب قطعة الخشب وينزل الصمغ بواسطة المقبض أو الخرطوم إلى أسفل السفينة حيث يقوم عمال مكلفون بهذه المهمة برصه ووسقه.

ويمكن أن ندرك بكل سهولة بأن الزيادة في أبعاد هذه القنطرة كان يمكن أن تحدث دون أن يتخيلها أو يراها البيضان الذين هم وإن كانوا متحايلين وأذكياء فإنهم لجهالتهم لا يمكنهم أن يتنبهوا

لأثر زيادة عدد البوصات في قطر القنطرة على ارتفاع هذا المقياس، فقد كانوا مغبونين من قبل هؤلاء التجار الذين يفهمون جدا هذا المستوى من الهندسة التي بواسطتها يحولون لصالحهم سعة هذه الأوعية المستخدمة في الشراء والبيع.

فالذين كانوا يشترون الصمغ من البيضان يستخدمون باطراد هذه الحيل من أجل الحصول على أكبر كميّة من السلعة دون زيادة في السعر، وهذا النوع من الأحواض الذي يدعى القنطرة والذي يستخدم كمقياس وزني في تجارة الصمغ بالسنغال أصبح شيئا فشيئا لصالح الأوروبيين حيث تضاعفت سعتها أربع مرات.

فهذه القنطرة حاليا تسع ٢٠٠٠ليبره من الصمغ بينما كانت في عهد الشركات الهولندية منذ ستين سنة لا تسع أزيد من ٥٠٠ ليبره إلا بقليل.

ويُدفع ثمن الصمغ إلى البيضان في شكل قطع من قماش القطن المصبوغ بالأزرق الداكن (النيلة) الذي كان يصنع في الهند والذي يحمل اسم قماش غينيا في تجارة إفريقيا الغربية.

وهذه القطع القماشية يتراوح طولها ما بين ٧-٨ أذرع ونصف ذراع عرضا، وخلال إقامتي في إفريقيا كانت هذه القطع أساسية في الصفقات التي تبرم. ولم يكن البيضان يقبلون سلعة غيرها في مبادلة الصمغ.

وقد تم في فرنسا محاولة محاكاة هذه القطع النيلية ولكن بلا شك لم تنجح المحاولة تماما ولم يكن بالمقدور خداع البيضان في هذه القطع، فقد كان لديهم حدس وذوق يمكنهم مباشرة من التفريق بين القطع المصنوعة في فرنسا وتلك المصنوعة في الهند دون الرجوع إلى اللمس ولا إلى اللون بل بمجرد الشم، فعن طريق الرائحة فقط يعرفون الأصلي من المزيف.

فهذا القماش الهندي النيلي الذي يقوم الهنود بصبغه لديه لا شك عبير خاص لم نتمكن بعدُ من محاكاته[١].

وتجارة الصمغ مثلها مثل تجارة العبيد لم تكن تخلومن مخاطر، والتجار الذين كانوا في تلك الفترة يمارسون تلك المغامرات في نهر السنغال لا بد أنهم كانوا يملكون قدرا كبيرا من الجرءة والجسارة زيادة على القدرات التفاوضية.

فالبعثات التي كانت بهدف التجارة كانت تتحول فعلا وفي كثير من الحالات إلى عمليات حربية يجد التجار أنفسهم فيها ملزمين بالدفاع عن التجارة فضلا عن أنفسهم.

فالتاجر "سوغني" *Saugnier* ترك لنا قصة مصورة لإحدى هذه البعثات[٢].

---

(١) حاليا لا يزال البيضان لا يقبلون إلا قطع القماش النيلي التي تترك على أجسادهم طبقة من الوضر المسود عند لباسها جديدة. وهم يعتزون بها لأنها تقيهم من الأمراض.

(٢) Cultru تاريخ السنغال.

فقد غادر بقاربه الشراعي المسمى *Le Furel* والذي تصل سعته ٧٠ طنا وعلى متنه ٢٤ *Laptots* و٤نوتيين، وكان معه مغن ونجار وقائد ومساعده و٦نساء طاحنات للزرع، وكل هؤلاء ينامون الليل هنا وهنالك على أسرة معلقة، أو على خشبات القارب؛ فكم كان الوقت جميلا وكم كان مريحا. إلا أنه إذا جاء المطر أخذ الزنوج رجالا ونساء أقمشة واقية من المطر خشية حصول البلل ويُعيدونها إذا انتهى المطر. وكان يصطحب معه أيضاً ١٢مراهقا يدعون *Rapasses* ويقومون بخدمة النوتي الصغير،وبما أنه سيكون له شغل مع البيضان فقد اصطحب معه ٦مدافع حجرية و١٢خنجرا فرنسيا وانكليزيا.

وبصعوبة غادرنا سان لويس فقام الطاقم الزنجي يصلي، ذلك أنهم كانوا جميعا مسلمين مطيعين، ويعلمون أنهم سيتعرضون لمخاطر في طريقهم، فإذا طلبوا العون من السماء (الله) فكروا فيمن تركوا خلفهم وهم لا يزالون ينظرونهم على الضفة؛ طوفان من الدموع، مندب جماعي، وكل يودع أهله ووطنه.

ولكن فور ما غابت الجزيرة عن أعيننا نسي الجميع الأسى وشرعوا يُغنّون. وفي الثامنة مساء من نفس اليوم وصلنا إلى خليج *Maringouins* وبما أن القارب الشِراعي *Furel* لم يتجاوز قط هذا الخط، فقد تم الاحتفال ومباركة الحدث ومباركة الركاب الذين هم في نفس الحالة، وذلك بالضرب على أواني المياه بشدة (كضرب الطبول) ثم بدأ المغني الحفلة وأرسى القارب وجمع الطاقم، وبما

أنه لا يمكن تنظيم حفلة جيدة لدى الزنوج بدون إنطاق البارود، فقد تمت تعبئة المدافع والبنادق، ثم أخذ المغني يمتاح مياه النهر ويرمي بها في جهات عديدة من القارب لثلاث مرات (يبارك بها الجميع). وعند كل عملية تعميد بالنصح (مباركة) يتم إطلاق لجميع المدافع والبنادق ثم بعد ذلك يتم نزع قعر برميل من ماء الحياة.

ثم وصل القارب إلى بودور يوم ٢١ مساء حيث كان عليه أن يتعامل مع البيضان، فقد كان الترارزة يومئذ يقودهم أمير خدَّاع ومخيف، وكان قد نهب منذ زمن قليل بضائع من أحد القوارب الفرنسية كان يُبحر في شواطئهم. وخلال مناقشاتهم المملة، وظناً منه أن الفرنسيين لا يفهمون لغته، أمر الأمير البيضاني رجاله المحيطين به بمهاجمة القارب بينما يقوم هو بعزل القائد وحرسه في مخيمه، ولكن سوكني لحسن الحظ كان يفهم العربية فأخذ السلاح الذي كان على متن السفينة وأوقف البيضان الذين كانوا على القنطرة، وخلال ثوان كان الأمير محاصرا في مخيمه من قبل الفرنسيين وزنوج بودور، لدرجة أنه جمع كافة البضائع التي نهب من قبلُ وأعادها.

وفي موضع من النهر أعلى من ديركل يوجد معبر صعب يسمى لسان الجني[1]، هناك عندما نزل من كالام *Galam* يطلق سكان الضفتين على السفن النار من جهات ثلاث مرة واحدة، فهو الموقع الأشد خطورة؛ ابتداء من هذه النقطة تبدو ضفتا النهر مغطاة

(١) Dioulde Dialré في الخرائط الحالية.

بالغابات، والتماسيح كثيرة في النهر وكانوا يلعبون بإطلاق النار عليها. وفي المساء جاءت أفراس النهر لتشرب من النهر وتعبر الفيلة النهر غير مرتاعة من أسطول القوارب المبحرة بهدوء.

وفي بلدة سالدا*Saldé* يتم دفع الرسوم المسماة رسوم ***Foules*** التي تتألف من ٥ جنيهات فضة لكل قضيب[١] من السلع، وكانت هذه ضريبة فادحة، ذلك أن قاربا محملا بقيمة ٦٢٥ قضيباً من السلع يدفع٣١٢٥جنيهاً، ويتم تقييم مختلف البضائع بالقضبان، وكان التقييم غالباً ما يكون مرتفعاً، وقد ارتفعت الرسوم هذه السنة لتصل إلى ٨٣٩ قضيباً عن شحنة مقدرة بـ ٦٢٥ ومن بلاد فولْ إلى كالام[٢] هناك أيضاً رسوم تصل إلى ١٢٠ قضيباً.

ولما وصلنا إلى هذه البلاد التي كانت محط آمال النخاسين (مشتري العبيد) تم تحديد سعر العبيد هذه السنة، حيث ارتفع إلى أن وصل ٧٠ قضيبا. ولما تم الاتفاق حول هذا السعر الذي يصلح لأن يكون قاعدة لجميع السلع تم التوجه إلى تامبوكان *Tamboukané* محل المعاملة العادية.

وبعد ثلاثة أسابيع أصبح من اللازم أن نعود بسبب انخفاض مستوى المياه، وفي باكل جنح قارب "صوغنيه" ***Saugnier*** ورسب وكان من اللازم تفريغ حمولته من البضائع لدى رئيس البلدة الذي

---

(١) قضيب من حديد إحدى السلع الأولى للتبادل في هذا البلد وكان يستخدم كقاعدة تقييم مختلف البضائع.

(٢) منطقة من مناطق خاي

تعهد بالحفاظ عليها وإعادتها في السنة المقبلة. ومرض هذا المفاوض واستعار قاربا من الملك ورجع حتى وصل بلدة سالدا وترك قاربه الجانح عند عبد من بنبارة يُجيد قيادة السفن النهرية يدعى "سيبيوه" *Scipion* وكان معروفا بالبسالة. تعهد له بانتشال القارب وبمساعدة من *Laptots* تمكن من انتشال القارب وجعله يبحر، وهدد زعيم قرية باكل الذي لم يكن يريد إرجاع البضائع المودعة لديه بأن يهاجم قريته ويشعل فيها النار. فاجتمع *Sarakollés* للهجوم عليه وفرقهم بطلقات مدفعية ونزل مع النهر حتى وصل إلى لسان الجني حيث وجد جماعة من الفلان متجمهرين لإيقاف القارب والهجوم عليه حسب طبيعتهم. فبدأ بمهاجمتهم وأسر منهم ستين فردا، وتفاوض معهم حتى تمكن من العبور بحرية مقابل تسريح أفرادهم الأسرى. وبعد كل هذه المغامرات والمخاطر والأمراض وفقدان رجاله، عاد صغنكني وقد فقد جميع بضائعه تقريبا، ولما دخل إلى *Saint Louis* عاد أشد فقرا منه يوم ذهابه.

* * * *

المرحلــة الثــانية

من تاريخ الاستقرار النهائي للفرنسيين في السنغال إلى بداية التدخل في أرض البيضان ١٨١٧- ١٩٠٢

* بداية النزاع مع البيضان
* القيام بجرد خيرات البلاد

خلال هذه المرحلة كانت فرنسا التي استقرت نهائيا بالسنغال تريد أن تستفيد من وضعيتها الممتازة على حدود بلاد البيضان، لتتمكن من احتكار استغلال موارد هذا البلد وخاصة الصمغ.

والعلاقات التجارية مع السكان الأصليين في هذا البلد ليست دائما بلا مشاكل ونزاعات. ولكن فرنسا المشغولة بأمور أخرى، لاتريد الحصول على موطئ قدم في الضفة اليمنى للنهر.

والعمليات العسكرية لم يكن لها هدف سوى المحافظة على مصالح مواطنينا وحماية أتباعنا على الضفة اليسرى ضد عمليات النهب القادمة من الشمال. وخلال هذه المرحلة كانت عملية الاستكشاف المنهجي لموريتانيا تهدف إلى وضع قوائم بموارد البلد الطبيعية.

وعليه فإن تحليل هذه المرحلة يمكن أن يقسم إلى أربعة أقسام :

١- استعادة الاستقرار – نهائيا هذه المرة – للفرنسيين في السنغال وبداية النزاعات مع البيضان (١٨١٧- ١٨٥٤)

٢- العمليات النشطة للحاكم فيدرب الذي شن حربا في الضفة اليمنى للنهر وألزم البيضان بقبول شروطه (١٨٥٤-١٨٥٨)

٣- مرحلة طويلة (١٨٥٨-١٩٠٢) ساد خلالها السلم بيننا وبين البيضان بسبب حروبهم فيما بينهم.

٤- مرحلة الاستكشافات وجرد الموارد الطبيعية للبلد.

١- استعادة الاستقرار النهائي للفرنسيين بالسنغال وبداية النزاعات مع البيضان ١٨١٧ - ١٨٥٤

الحاكم *Schmaltz* وغرق السفينة لمديز *La Méduse* — الحرب مع الترارزة

الأمير محمد الحبيب

لقد أعادت اتفاقية باريس بتاريخ ٣٠ مايو ١٨١٤ إلى فرنسا مؤسساتها التي كانت تملك في السنغال في تاريخ ١ يناير ١٧٩٢، ولكن الاستعادة الفعلية لم تتم إلا في سنة ١٨١٧ .

لقد كانت هذه المرحلة طويلة وكثيرة المشاكل[١]، وقد طبعت في بدايتها بالغرق المأساوي لسفينة لمديز، فرقاطة تحمل على متنها كتيبة من المشاة تشكل الفرق المتوجهة لاحتلال المستعمرة، فضلا عن الموظفين الرئيسين الذين كان يراد لهم أن يتولوا التسيير الإداري للمستعمرة، وعلى رأسهم العقيد شمالتز *Schmaltz* القائد الملكي والإداري بالسنغال وما يتبعها.

وقد كانت سفينة لمديز تبحر قريبا من الشواطئ فجنحت في جزيرة آركين وألقيت المراكب الصغيرة في البحر وأخذ كبار الركاب أماكنهم وتم بناء طوق للآخرين وبدأت المراكب تبتعد وتجر هذا الطوق وراءها. هكذا تحكي الرواية الرسمية. وبعد سبع ساعات

---

(١) داخل الامراطورية الاستعمارية مونتيي نشرة لجنة الدراسات التاريخية والعلمية لإفريقية الغربية ١٩١

من الإبحار انقطع حبل المراكب وأمام هذا الخطر العظيم الذي يحدق بهذه المراكب إذا اقتربت من الطوق العائم الذي تركه ركابه وارتموا على متن القوارب المحملة أصلا بحمولة زائدة، لم يكن هناك خيار غير الابتعاد عن الطوق وتركه خيفة حصول كارثة أعظم وأعم.

وفور وصوله إلى سان لويس قام العقيد شمالز بإعلام الحاكم الانكليزي بحادثة الغرق وطلب منه بأن يقوم بالإجراءات الضرورية لدى أمير الترارزة: بأن يأمر رجاله فورا بإعادة المساكين الغرقى إلى السنغال حيث كانوا يسلكون الشاطئ حتى أوقفهم البيضان.

والحال أن كثيرا من المراكب لم تتمكن من الوصول إلى سان لويس وظلت تحاذي الشاطئ الموريتاني حيث كان الركاب يحفرون في الرمل ليجدوا مياه بيضاء ذات رائحة كريهة، ولكنهم يجدونها عذبة سائغة إلا أنهم لم ينجوا من معاطب البحر إلا ليقعوا في مهالك الصحراء وهم أكثر فزعا إذا فكروا في إمكان ملاقاة البيضان، فإما تعذيب بشع أو يباعون عبيدا لسلطان المغرب، وكلما أبصروا أحد هؤلاء البيضان الصعاب على قمة من قمم التلال نادوا بالأسلحة، ولكي يعطوا لأنفسهم مظهرا جليلا انتظم هؤلاء في صف، وبما أن الأسلحة كانت قليلة لديهم فإن بعضهم كان يلوح بقِراب السيوف.

ولكن سرعان ما حدث الاطمئنان؛ فقد جاء البيضان مصادقين ليوصلوا هؤلاء الغرقى إلى سان الويس.

وهناك فرقة أخرى من الغرقى حطت شمال ميناء هدي ولم تصل إلا بعد أيام بعد أن عانوا وقاسوا الآلام الفظيعة، تاركين خلفهم بين ثنايا الكثبان ١٤ جثة.

وفيما يخص الطوق العائم على السطح بما تشتهي الرياح فقد وجده القارب المسمى *l'Argus* الذي تم إرساله في رحلة للبحث عنه، ولم يبق على متنه من ١٤٧ شخصا إلا ١٥ مشرفا على الموت بين أشلاء من الأجساد البشرية المخضرة كما لوكانت على خشبة جزار وعلب مملوءة من البول الذي كان هو الوسيلة الوحيدة لسد رمق الأحياء.

ولا نعرف عما تعرض له هذا الطوق وركابه من الأهوال إلا عن طريق ما يحكيه هؤلاء. قام الجنود الذين يرون أنهم هالكون حتما وأخذوا المقاطع وشرعوا يقطعون حبال الوصل بين أجزاء هذا الطوف العائم من أجل تعجيل موتهم.

وبعض الضباط والركاب الذين لا تزال لديهم بقية من قوة يطعنون أنفسهم بالخناجر والسيوف ويلقون في البحر بأربعين من زملائهم وبعضهم يُغرقون أنفسهم طواعية في البحر.

وبعد ذهاب الحاكم الانكليزي ـ هذا الذهاب الذي لم يكن يخلوا من سوء نية بالرغم من معاهدة باريس، ولم يتم بدون مماطلة ـ قام العقيد *Schmaltz* بشن حرب على الترارزة الذين يعبرون النهر لنهب ضفة النهر اليسرى والذين يدعون أن لديهم حق السيادة على ناحية الوالو.

فأمير الترارزة المغتصب أعمر الذي قتل ابن عمه الأمير الشرعي كان منذ القدم على حرب مع امحمد ولد أعلي الكوري ابن الأمير

المقتول، فقام شمالتز بمساعدة امحمد هذا ونجح في عقد تحالف بينه وبين *Ouoloffs* "الولوف" و*Darmancours* "إدولحاج".

وهذه السياسة أقلقت الحكومة الفرنسية فأصدر وزير المستعمرات لبرون *le Baron Portal* أمرا إلى حاكم السنغال بتحريم أي مقاطعة للترارزة خشية أن يترك هؤلاء المحطات النهرية ويحملوا الصمغ إلى ميناء هدِّي، حيث المنافس الانكليزي. وهناك سبب آخر من أسباب انزعاج الحكومة الفرنسية، وهو أن قضية استغلال موارد إفريقيا الوسطى ـ التي كانت إقامة البحار "آدمس" *Adams* في تنبكتو لفتت إليها الانتباه ـ بدأت تكون مصدر اهتمام الرأي العام الأوروبي.

وشنت الصحافة الفرنسية حملة تصف الانكليز بأنهم أقاموا علاقات تجارية مع حوض النيجر عن طريق شواطئ إفريقية الشمالية.

فكلف حاكم السنغال بدراسة إمكانية استخدام وضعيتنا المتميزة في السنغال وعلى ضفة البيضان، من أجل سبق الانكليز في إنشاء مثل هذا المشروع. وذكّر بالميزة الخاصة التي يمنحها في هذا الصدد وجودنا بميناء هدي الذي يمكن أن يكون مركز العلاقات المتَابعة مع تنبكتُو وسط إفريقيا (بإتباع الخط المتوازي) بفضل قوافل البيضان التي بإمكاننا تنظيمها.

لكن شمالتز لم يجد كبير صعوبة في إقناع الحكومة حول خطورة هذه المشاريع الخيالية وصعوبتها في بلد غير معروف حتى عند أصحابه الرحل أنفسهم؛ في مناطق لا توجد بها نقاط الماء أو توجد على بعد مسافة مئات الكلومترات؛ في بلد يغص بالنهب حيث القوافل المحملة بالسلع يهجرها أصحابها ويتركونها للسكان الأصليين. وأما البيضان الذين تمت استشارتهم حول هذا المشروع فقد رفضوا القيام بهذه المحاولة، لأن المنافع التي ستجلبها لهم هذه التجارة لا تتناسب مع المخاطر الممكنة، ولأن التجارة في محطات النهر تضمن لهم أرباحا مهمة مع قليل من المخاطرة والتعب.

وأثناء ذلك وفي سنة ١٨١٩ قام الترارزة بعبور النهر ونهبوا الوالو وأحرقوا كثيرا من القرى وأسروا قرابة المائة من السجناء، فقامت حامية سان لويس بمتابعتهم ونجحت في اللحاق بهم وقتلهم.

ولكننا تعبنا من هذا العداء الذي دام سنتين وأعاق التجارة وعثّر المعاملات.

ثم جاء لكوبي *Le Coupé* خلف شمالتز، ومن غير أن يقطع العلاقات مع امحمدْ؛ قرر التعامل مع أعمرْ، وفور ذلك تم إرساء السلام وإعادة العلاقات إلى سابق عهدها ولكن بأي ثمن؟.

تم توقيع اتفاقية سنة ١٨٢١ مع الترارزة، تم لهم فيها الاعتراف بحقوقهم على الوالو، ويتعهدون هم في المقابل بالسماح وحماية

المشاريع الزراعية التي تُنشأ على ضفتي النهر واستمرار الترارزة في تحصيل رسوم كثيرة والأخذ من السود الذين هم غير موالين لنا.

ومن جهة أخرى تعهدنا نحن بأن نعيد إلى البيضان العبيد والأتباع الفارين الذين يلجئون إلى السنغال، ونتعهد كذلك بألاّ نتدخل في شيء من أمور الترارزة الداخلية فيما بينهم.

وهذا يعني إلغاء أغلب النتائج التي تُوُصِل إليها سابقا بجهد جهيد.

وأثناء ذلك وفي نفس السنة تنازل لنا البراكنة عن الأراضي التي كنا نظنها ضرورية لإقامة منشئاتنا في بلادهم، ثم اتفقنا كذلك مع إدوعيش على أن يقدموا إلينا في محطة بكلْ حيث أنشأ النقيب أو القائد *de Meslay* مركزا سنة ١٨١٨.

وبالرغم من تنازلاتنا فإن السلم لم يكن ليدوم طويلا؛ فالأمير ـ الذي يبحث عن الاستفادة من خلال التنافس التجاري بين الفرنسيين والانجليز من أجل زيادة دخله ـ يأخذ على الحاكم في السنغال عدم التزامه بالاتفاقية، وينتهز الفرصة لإعادة إبرام علاقات مع أصدقائه القدماء(الانجليز) ولم يدخر الحاكم الفرنسي الجديد روجى والتجار الفرنسيون في سان لويس الذين يعلمون أن مصلحتهم في منع وصول الصمغ إلى ميناء هدي أي جهد أو هدية للحصول على صداقة مع أحد رؤساء الترارزة المؤثرين. محمد فال بن العم العدو للأمير صرح بأنه سيمنع وصول الصمغ

إلى الشاطئ، ولكن بالرغم من هذا الوعد فقد ظهرت ثلاث سفن انجليزية في ميناء هدي ١٨٢٢ ومارست تجارة مربحة. وبعد هذا النجاح تبين للحكومة الانجليزية بأن مواطنيها يمكنهم مستقبلا التزود مباشرة من الصمغ في الشواطئ الموريتانية وألغت اتفاقية الاستيراد.

فمستقبلا كل المنتجات الخارجية لا يمكن استهلاكها في انجلترا إلا إذا كانت مشحونة على متن سفينة انجليزية من المنشأ الأصلي. وكانت نتيجة ذلك إغلاق جميع الأسواق الانجليزية أمام الصمغ الموريتاني إذا كان قد مر بفرنسا.

ويقترح روجى على الحكومة أن تتدخل بجدية وتعمل على إلغاء الانجليز لقرار الإبحار الجديد وخاصة فيما يتعلق بالصمغ، بل يكفى يقول روجي: منعهم من المتاجرة في ميناء هدي مدة سنتين ويمكن حسب روجي الحصول على هذه النتيجة إذا تم له رصد مبلغ قرض سنوي بمبلغ ٤٠٠٠٠ فرنك للتعويض عن آثار الهدايا التي يقدمها الانجليز للبيظان لجذب قوافلهم نحو ميناء هدي.

وتقدم أمير الترارزة المغاضب عند ما علم أن بعض الهدايا تعطي لعدوه محمد فال وطالب بإلغاء الرسوم التي تعطى لهذا الأخير.

وقام محمد فال من أجل تبرير فائدته بتجميع رجال من المحاربين يوقفون القوافل المتجهة نحو ميناء هدي، ثم جاء ابن الأمير وهاجم محمد فال وقتله.

وانقسم الترارزة حينئذ إلى طرفين متحاربين، وهاجت الحرب الأهلية بينهم من جديد فتضررت تجارة الصمغ كثيرا وانتهز البيضان الفرصة ليمارسوا من جديد عمليات النهب في الضفة اليسرى، وانطلقت قوارب وعلى متنها *des laptots*(أعوان مسلحون) يجوبون النهر ليقطعوا الطريق على الناهبين.

وقد كان من آثار المنافسة بين الانجليز والفرنسيين ضمن آثار أخرى أن رفعت سعر الصمغ بنسب كبيرة.

وانتشر سريعا الصدى بأنه من أجل تنمية تجارتهم قرر الانجليز ـ بالرغم من معارضة نصوص المعاهدة الموقعة بتاريخ ١٨١٥ ـ إنشاء مؤسسة ثابتة في ميناء هدى، ووصلت الأوامر إلى روجى من الحكومة بمعارضة قرار الانجليز مع حقه عند الحاجة في مركز عسكري في ميناء هدى وذلك لمنع الانجليز من الاستمرار في مشاريعهم.

وهذه المشاريع لم توجد قط إلا في مخيّلة بعض تجار سان لويس، وكذلك مشروع إنشاء أول مركز عسكري لنا في موريتانيا لم يجد النور. والمناوشات مستمرة بين الفصيلين من الترارزة مع طرح بدائل مختلفة، حين اختفى زعيما الحرب الأهلية سنة ١٨٢٦ حيث قتل المطالب بالملك في معركة ضد أولاد آكشار ومات الأمير بعد ذلك بقليل. واختفاء هؤلاء ترك الساحة حرة أمام المساومات والأخذ والرد.

وفي سنة ١٨٢٩ تم توقيع اتفاقية مع محمد لحبيب بن سلفه أعمر وتحدد هذه الاتفاقية دفع الرسوم وشراء العبيد والعلاقات بين البيضان والولوف والمؤسسات الفرنسية في الوالو، وتعهد الأمير والشيوخ في الترارزة بأن يحملوا ما يتم تحصيله من الصمغ على أراضيهم وما يمكن استجلابه إلى النهر.

ويفضل البيضان محطات النهر على ميناء هدى وآركين لصعوبة الوصول إليهما، منطقة صحراوية يصعب عبورها ولا يمكن استخدام الثيران فيها كما هو الحال في ناحية النهر.

وعلاوة على ذلك يفضل الأمراء في الترارزة عدم الابتعاد عن النهر حيث يتقاضون رسومهم في ربوعهم ودون أن يتعرضوا لمخاطر النهب من هؤلاء الرحل الذين يجوبون هذه الأقاليم وخاصة في الشمال. وكان في ذلك إلغاء عملي لمحطة ميناء هدى التي لم يعد لها وجود.

وقد كان محمد الحبيب أمير الترارزة الكبير الذي وجد معه وحده التفاهم ثلاثين سنة بعد ذلك مفاوضا ماكرا أكثر منه محاربا ماهرا، وقد نجح خلال سنوات عديدة في لعب سياسة متوازنة تمكنه من الاستفادة من الطرفين واستمر الانجليز في شحن الصمغ من ميناء هدى.

ولم يتم منع هذه المحطة أمامهم نهائيا إلا سنة ١٨٥٧ السنة التي تمت فيها معاهدة لندن بتنازلهم عن حقهم في التجارة الشراعية من

مصب نهر سان جاه إلى ميناء هدي في مقابل تنازلنا عن حقنا في البريده في غامبيا. ويعد هذا انتصارا لسياسة فيدرب في أرض البيضان. وعند نقل هذه الأخبار إلى علم الجمهور بواسطة المذيع الرسمي يقول: سيعلم الجميع من هنا أن الحكومة الفرنسية مصممة على الحفاظ في إطار سياستها المتبناة اتجاه البيضان بأن تسلبهم حتى ظل أمانيهم في الهروب من تنفيذ أوامرنا[١].

وفي سنة ١٨٣٣ تزوج الأمير محمد لحبيب جمبت ابنة ملك الوالو وكان من نتائج ذلك تجميع الوالوفي يد البيضان. واعترض حاكم السنغال وقام بشن حملتين متلاحقتين ضد الترارزة، وأغلق ميناء هدى من أجل صد البيضان عن الذهاب إلى هذه النقطة وبيع الصمغ للإنجليز بعد أن امتنعوا عن جلبه إلى النهر. ثم قبلت الترارزة المغلوبون بمضمون اتفاقية ١٨٣٥ وتنازلوا عن كل حق وراثي على أقاليم الضفة اليسرى للنهر.

وخلال سنتي ١٨٤٣ -١٨٤٤ حصلت مناوشات مع هؤلاء وانتهز الأمير محمد لحبيب فرصة الغليان الحاصل في السنغال بسبب تحرير العبيد؛ فأعلن ابنه اعل وريثا على الوالو وأعلن بأنه ذاهب ليصلي في كنيسة سان الويس وبأنه سوف يرمي البيض في البحر.

---

(١) بول مرتي: محاولات تجارية انجليزية في ميناء هدى وفي موريتانيا

وألغيت تجارة العبيد التي كانت إلى عهد قريب إحدى أهم مكونات المبادلات المربحة، ولم يبق من سلع المبادلات إلا الصمغ والذهب والعاج والريش؛ يجلبها البيضان إلى محطات النهر خلال المواسم المحددة للتجارة أي من يناير إلى أغسطس ويتم إعلان افتتاح وإغلاق الموسم التجاري بطلقات مدفعية.

وقد كان التجار الفرنسيون في منطقة النهر مصحوبين بزوارق مسلحة مهمة قائدها أن يكون حكما بين التجار والسكان، وأن يحمي التجار الفرنسيين ضد محاولات النهب في بعض الأحيان.

وقد كانت عمليات هذه الزوارق محدودة جدا، ولا يمكن أن تمتد إلى ما وراء الأطراف المباشرة لقلاع المحطة.

وكذلك السكان فقد تعودوا أن يبقوا أنفسهم خارج هذه المناطق ليكونوا في مأمن من وحداتنا.

وخلال فترات انحسار مياه النهر وخاصة تلك التي تتزامن مع موسم التجارة يعبر البيضان النهر بمواشيهم ويرتعونها على الضفة اليسرى في سهول الوالو الخضراء. وينتهزون الفرصة للقيام بهجمات في بلاد السودان للنهب ومطاردة العبيد بكل حرية وأمان، ويقوم ملوك المناطق السودانية بدفع إتاوات لأمير الترارزة.

وفي سنة ١٨٤٣ وضع الحاكم الجديد للسنغال نقيب الحراقة *Bouet Willaumez* حدا لعمليات النهب وأنهر من سان لويس على رأس رتل صغير من البحارة والجنود من الصف الثالث البحري

إلى الملحقين وجاب الضفة اليسرى للنهر أي حوالي ٤٠٠ كلم ووصل إلى نهر رشاتول فقامت ملكة الوالو جمبت واعترفت بسيادتنا المطلقة وأعلنت تبعيتها لحمايتنا.

ومنذ ذلك الحين كانت التجارة تتم في ظروف حسنة وبدأت أهمية الرسوم تقل شيئاً فشيئاً.

❋ ❋ ❋ ❋

٢- *Feudherbre* والبيضان
غزو والو ـ الحرب مع الترارزة والبراكنة ١٨٥٤ ١٨٥٨

في هذه الفترة بدأ الفستق الذي ظل مهجورا تقريبا إلى هذا الحين يأخذ أهمية في المعاملات التجارية، ولتطوير هذه التجارة قمنا بإنشاء مراكز تجارية وخاصة في بودور الذي كان احتلاله سنة ١٨٥٤ فاتحة اتصال مباشر بيننا وبين البراكنة والتوكورور الذين لم يسالمونا إلا بعد أن تلقوا دروسا قاسية.

وفي نفس السنة عين النقيب فيدرب الذي كان منذ سنوات في هذه المستعمرة، قائدا للكتيبة وحاكما للسنغال.

وبما أن المفاوضات مع محمد الحبيب لم تعد مجدية لوقاحته، قام فيدرب حينئذ بانتهاج سياسة فعالة اتجاه البيضان وأعلن أن التجارة أصبحت من الآن فصاعدا حرة "يجب علينا ـ حسب الأوامر التي يتلقاها من الوزير ـ أن نفرض إرادتنا على شيوخ البيضان ويجب إلغاء المحطات واستخدام القوة إذا لم يمكن الحصول على المطلوب بطريقة الإقناع، وإلغاء كافة الإتاوات التي كنا ندفع لممالك النهر ما عدى بعض الهدايا التي يروق لنا إعطاؤها كدليل على أريحيتنا لشيوخ البيضان الذين نرضى عنهم. يجب أن نكون نحن الأسياد المطلقين لهذا النهر كما يجب إلغاء منطقة الوالو ونزعها من يد الترارزة كلية وحماية المزارعين في الضفة اليسرى. فالترارزة انتهزوا فرصة عدم اكتراثنا الذي كنا نبديه طيلة مدة طويلة

بكل ما لا يمس جزيرة سان لويس وكوري وتعودوا على معاملة الأقاليم الموجودة في الضفة اليسرى وخاصة الوالو على أنها بلاد مغلوبة.

وطبقا للأوامر التي صدرت إليه أشعر فيدرب أمير الترارزة محمد الحبيب بقرار إنشاء نظام الحماية على منطقة الوالو ويحذره من الدخول مستقبلا في أقاليم الضفة الجنوبية للنهر، ودون أن يفكر في نتائج هذا الإشعار أعد العدة للحرب.

وقد كانت لديه ٤ فرق من مشاة البحرية وفرقة من القناصة مؤلفة من العبيد المحررين وكتيبة من الفرسان وبطارية لإطلاق المدفعية البحرية وفرقة من عمال المدفعية ومفرزة من الهندسة. وتتألف المحطة البحرية من ٤ سميريات (سفن بحرية صغيرة لحماية القوافل البرية) وزورقين مسلحين وباخرتين لربط الخيول (إصطبلات).

وفي سنة ١٨٥٧ أنشئت كتيبة من القناصة السنغاليين وقد تم اكتتابهم بدون مشكلة من الولوف في سان لويس ونواحيها، ويوحي مظهرهم بالقوة ولكنهم قليلوا الانضباط. وفي نهاية سنة ١٨٥٤ عبر البيضان النهر وقام فيدرب بمطاردتهم وقتل منهم ٦٠ رجلا وغنم ١٥٠٠ من البقر، ولكن جمبت ملكة الوالو التي تزوجت من محمد الحبيب بعثت محاربين يساعدون هؤلاء البيضان. وفي لقاء آخر وبعد هجمة بالحراب أثخن جنود النقيب بنوا *Benoit* في جسم العدو الذي لاذ بالفرار وطارده الفرسان حتى نكص على عقبه، وفقد ٢٥٠ من رجاله و٢٠٠٠ ثور و١٥٠ حصاناً وهربت جمبت إلى

الجنوب وعبر البيضان النهر راجعين على عجل ولم تكلفنا هذه العملية اللامعة إلا ٣ قتلي و٣ جرحى.

وفور ذلك خضعت لنا منطقة الوالو وقمنا بتعيين شيخ جديد لهذه المنطقة هو *Fara Penda* ومع ذلك لم ييأس محمد الحبيب من غلبتنا، وكان رده على الإنذار الموجه إليه من الحاكم أن طلب بوقاحة وجرأة كشرط للسلم زيادة الرسوم المدفوعة وإعادة افدرب إلى فرنسا.

وفي الشهر الموالي ابريل ١٨٥٥ يعلن فيدرب الحرب من الضفة اليمني للنهر، وباغت بالهجوم والغزو محلة الترارزة النازلين في منطقة سهوت الماء ونهب أكثر من ٣٠٠٠ ثور.

وأثناء ذلك كان محمد الحبيب يعمل من جانبه في الضفة اليسرى ويحاول القيام بعملية في سان لويس على رأس ٢٠٠٠ من المحاربين، حيث أوقف في معبر ليبر *Leybar* الذي يوصل إلى جزيرة سان لويس من قبل الرقيب "بريوني" *Brunier* من مشاة البحرية ومفرزته المكونة من ١١ جنديا من المشاة وزورقين يمونان قذافا صغيرا. هذه الحفنة من الأشداء المتمركزين في قلعة سداسية الشكل لمنع دخول الجسر قاومت ببطولة مدة خمس ساعات، وفي النهاية أرغموا البيضان على الرجوع، وغادر محمد الحبيب إلى الضفة اليمنى للنهر، وبحجة أن أمير آدرار يهدد بلاده، توغل هو ومحلته إلى الشمال.

وإليكم ما كان يقصه فيدرب عن عملياته العسكرية المشرفة "ذهب محمد الحبيب بجيوشه للهجوم على القلعة التي يدافع عنها رقيب المشاة البحرية ابرنيه *Brunier* مع ١١ فردا من تشكلته وجنديين مدفعيين وفي طابق هذه القلعة السداسية الأضلاع يوجد قذاف جبلي يقذف من نافذة في شكل فتحة في السور. وفي الدور السفلي فتحات في الجدار لثمان مقاتلين، وفي يوم ٢١ ابريل تهافت الفرسان على القلعة بضراوة منقطعة النظير يسدون شرفات الدور الأرضي، وآخرون يحاولون هدم الحيطان بخناجرهم فاحترق عريش من الحشيش كان قريبا من القلعة وكان يستخدم كمطبخ على يد المحاصرين، وهناك امرأة كانت تحاول إنقاذ أغراضها من الحريق، ولم تتمكن من الهروب بسهولة، فعم الدخان والشرر على القلعة حتى خشي المدافعون أن تتفجر ذخائرهم، وفي ظروف حرجة وحاسمة كهذه وبالرغم من صياح مرعب لألف من الأعداء الذين لا يزيدهم القتل إلا شهية، فهؤلاء الجنود الأشداء لم يفقدوا في لحظة من اللحظات صبرهم الذي لم يكن لهم منه بد، فقد قرروا أن يقفزوا بما تبقى لديهم من الذخائر إذا أراد البيضان أن يتسوروا القلعة.

وأخيرا وجد هؤلاء جزاء شجاعتهم، فبعد خمس ساعات من القتال سقطت قذيفة وانفجرت قريبا من الملك، لاذ البيضان بالفرار تاركين قريبا من المركز قرابة ٣٠ من الجثث وحاملين معهم كثيراً من الجرحى.

وقد أصيب الرقيب ابرني واثنان من رجاله إصابات طفيفة، ومنذ ذلك الحين أصبح قوم الوالو حلفاء لنا وطاردوا معنا عصابات البيضان الصغيرة الهاربة.

ومن أجل التعويض عن هذا الإخفاق أبرم محمد الحبيب حلفا مع أمير لبراكنة محمد سيدى، وكان التقارب بين الطرفين المتحاربين قديما قد تم بمفاوضة من الشيخ سيديا[1] (من أولاد ابييري) الذي هيأ لهم ملتقى حضره كبار شيوخ الترارزة ليبحث الجميع مدى إمكانية استمرار القتال ضدنا.

وفي بداية سنة ١٨٥٦ أسس الأمراء محلة مشتركة قرب سهوت الماء، وحاول فيدرب أن يباغتهم ولكن لجهله بمدى قوة العدو التي كان يبالغ فيها جهز رتلا طويلا(١٠٠٠ من القوات النظامية و١٠٠٠ من المساعدين وقاذفتين) لا يمكن أن يغادر بودور دون أن يشعر به العدو، وقد تم فعلا علم الأميرين ورحلا في اتجاه الشمال.

حط الرتل في انوالي *Naoli* في بحيرة كايور*Cayor* بعد ٣ أيام من المسير الشاق بعد ما أضناهم العطش ولم يجدوا إلا آثار رحيل المحلة البيضانية فتوغل المساعدون إلى الشمال فنهبوا بعض الخيام وعادوا ب ٥٠٠ من الضأن.

وغنمنا في الطريق ما مجموعه ٥٠٠ أسير و١٥٠٠ شاة من الضأن و٦٠٠ من البقر و٥٠ من الجمال.

---

(١) والد الشيخ سيديا (بابا) المرابط الذي قدم لنا خدمات جلى خلال غزونا للبلاد.

وترك فيدرب جزء من القافلة في معرس مؤقت على خليج Koundi بين سهوت الماء والبودور. وكان يأمل أن يدخل في مفاوضة أولية مع سيد أعل الذي يزاحم أمير لبراكنة الذي يبدو أنه مستعد للتحالف معنا من أجل الاستيلاء على السلطة. وبعد مناوشات مع المنشقين كلفتنا ما يناهز ٢٠ من الرجال بدأ موسم الأمطار وتم إجلاء المخيم.

وفي ٦ يونيو قمنا بهجوم ضد محلة محمد الحبيب بقافلة مكونة من ١٥٠من البيض و٧٠٠من سكان الأرض الأصليين وأخفق هذا الهجوم بسبب أخطاء أصحابنا الذين بدؤوا مباشرة بعد دخولهم المخيم ينهبون ولم يثبتوا أمام هجوم معاكس شنه البراكنة، فهرب أصحابنا وثبت رجالنا النظاميون ولكنهم كانوا في مواجهة مؤخرة متمرنة على نظام جيد.

وفي سنة ١٨٥٦ فقد البيضان ١٥٠٠٠ من الأبقار و٢٠٠٠٠ من الأغنام و٨٠٠ من الإبل بالإضافة إلى ٣٠٠ أسير، والزوايا الذين لا يستفيدون من الحرب طالبوا محمد الحبيب بإبرام عقد سلم، فغلق أسواق النهر والحصار الفعال للضفة اليمني من بين أمور أخرى، كل ذلك يهدد البيضان بالمجاعة.

وفي ربيع ١٨٥٧ جدد أمير الترارزة هجومه وعبر النهر بـ٤٠٠من رجاله فنهبوا دائرتين هما *Mérinaghen* و*Lamsar*.

وبعد ذلك بقليل قام حليفنا *Fara Penda* ملك الوالو بمطاردات ناجحة على الضفة اليسرى ضد عصابات النهب التي تغامر على هذا الجانب من النهر، وقد خيلت ل *Enhardi* انتصاراته بأنه قادر وحده برجاله على الهجوم على الترارزة في أرضهم، فعبر النهر في بداية سنة ١٨٥٧ ثم رجع خائبا ومنهكا وقد فقد كل رجاله المحاربين تقريبا. وقد كان من اللازم من أجل المحافظة على كرامتنا أن لا نسكت على هذا الإخفاق.

فجهز فيدرب رتلا عسكريا من ١٣٠٠ من الرجال (ثلثهم من الأوروبيين) فحط الرتل في "دكان" *Dagana* بتاريخ ٩ مارس.

وتوجه الرتل إلى محلة الأمير الموجودة قريبا من بحيرة كايور *Cayor* فباغتهم، وحدث قتال بالحراب قتل فيه ثلاثون من رجال الأمير وأسر نحو أربعين والباقون ومعهم بعض الجرحى نجحوا في الهروب والاحتماء في أدغال ضفاف البحيرة، ولكن أثناء ذلك عبر أعلي ولد محمد لحبيب النهر بدوره وأحرق في الضفة اليسرى قرية كوندو *Gondou* في ضواحي سان لويس وقتل ١٠ رجال واختطف ٣٠ امرأة وطفلا سبايا.

فجمع فيدرب فورا ما تبقى من رجاله في سان لويس وكذلك حامية*Richard Toll* و١٠٠ فارس و٢٠٠ من الجنود وذهب في مطاردة أعلي الذي كان قد هُزم أمام مركز اندر وحاميته المؤلفة من مشاة البحرية وجندي ابيض واحد و٧ سود.

فلحقوا به وهزموه، ولكنه استطاع أن يلحق بالضفة اليمنى للنهر. فأصاب البيضان الوهن بفعل إخفاقاتهم الدامية، وبلغتهم انتصاراتنا على الحاج عمر في أحمدى مدينة وفي وادى *Goundiourou*، ومنذ ذلك الحين والهزائم تتزايد فأعلن إدوعيش خضوعهم وتقدم أولاد دامان بمقترحات للسلم وهناك مفاوضات جارية مع آخرين.

ويوقع بكار أمير ادوعيش معاهدة في بكل *Bakel* ويحاول محمد لحبيب تثبيت عزائم المترددين بالقيام بعملية تضليل قبل الهجوم، فمني بهزيمة دامية فدفعه الإحباط إلى أن أرسل ابنه إلى سان لويس لإعلان الخضوع. وفي الشهر الموالي أعلن محمد سيدى أمير لبراكنة أيضا رغبته فى السلم، ولكنه اغتيل بعد ذلك بقليل على يد مناوئه سيد أعلي حليفنا الذي أصبح الأمير الأوحد للبراكنة.

ولكن سيد أعلي لم يستطع أن يمنع رجاله من القيام بغزوفي *Djolof* فقام قائد الكتيبة فابو *Fobou* بمباغتة حي الأمير برتل عسكري قوامه ٦٥٠ رجلا وكانت تلك آخر عمليات فيدرب ضد البيضان.

فوقع الأمراء الخاضعون معاهدة سلم يتعهدون بموجبها باحترام حرية التجارة على النهر، والامتناع عن القيام بأي غارات ضد حلفائنا في الضفة اليسرى.

ويعترفون فوق ذلك بحق الأوروبيين في حرية المرور والإقامة في بلاد البيضان. وأخيراً، فتعيينُ الأمراء يجب أن يكون من الآن

فصاعداً خاضعاً لموافقة حاكم سان لويس. ونتعهد نحن في المقابل بأن ندفع للأمراء بدل الرسوم العرفية رسما محددا بـ ٣ بالمائة من قيمة الصمغ المجلوب إلى مراكزنا على النهر.

فأصبح من مصلحة الأمراء أن يمنعوا أتباعهم من جلب الصمغ وبيعه خارج هذه المراكز. ذلك أنهم لا يحصّلون هذا الرسم إلا في بعض المحطات المحددة، وبالرغم من أن هذه الرسوم المدفوعة للأمراء كانت ذات طابع تنكيدي، فقد استمر العمل بها حتى سنة ١٩٠٢ وقد مكنتنا من الحصول على ثقة هؤلاء مقابل ذلك الثمن كما أن المقتطعات المفروضة مكنتنا من تعويض الأضرار المسيئة لرعايانا. ذلك أنه في الغالب وبدلا من ضمان الأمن الموعود به للتجار وشيوخ الزوايا يمارس الأمراء النهب بطريقة غير مباشرة.

ونظراً إلى شراهة هؤلاء المعروفة فإن عمليات تصفية الحسابات هذه كانت أحسن وسيلة ضغط للحد من عمليات السلب والنهب دون قتال في فترة كنا فيها أحوج ما نكون إلى فرقنا العسكرية في أمور أخرى.

❊ ❊ ❊ ❊

٣- الفوضى والحرب الأهلية لدى البيضان والسلم مع الفرنسيين (١٨٦٨ – ١٩٠٢)
اتفاقيات مع الترارزة ولبراكنة وادوعيش واغتيال الأمـراء :

خلال هذه الفترة الطويلة، لم نتدخل مباشرة في بلاد البيضان وقد كان الأمراء يحترمون إلى حد ما الاتفاقيات الموقعة ويتركوننا في سلام نحن وحلفاؤنا في الضفة اليسرى للنهر.

وقد كان الأمراء فضلا عن ذلك يميلون إلى إرساء السلم بين رعاياهم وحماية أنفسهم ضد الدسائس والمؤامرات التي يحيكها أعداؤهم للإطاحة بهم، وهذه الفترة بالنسبة للأسر المالكة وخاصة الترارزة لم تكن في الحقيقة إلا سلسلة من الاغتيالات المتتابعة بين الأقارب، تعكس بجلاء الطابع الحقيقي لهؤلاء المحاربين من مكر وعجرفة وشراهة.

وفي سنة ١٨٦٠ قتل محمد الحبيب الذي لبث في السلطة ٢٧سنة، قتله أولاد إخوته بسبب المعاهدة التي وقع معنا قبل مدة يسيرة. فقام ولده البكر سيدي بالانتقام من القتلة بقتل أبناء عمه التسعة وخلف والده في السلطة.

وفي سنة ١٨٧١ قام إخوة سيدي السبعة بقتله وقتل أخويه الشقيقين ولكنهم لم يستفيدوا من جريمتهم، فقد تألب الترارزة ضدهم لصالح اعل الذي أمه سودانية اسمها جمبت كانت ملكة

الوالو وزوجة ثالثة لمحمد الحبيب. فتمت مطاردة الأخوة وهربوا وقتل منهم العديد وتأمر المولد اعل على الترارزة.

فقام سنة ١٨٧٧ بتجديد اتفاقية حسن العلاقات مع الفرنسيين وتعهد بإسعاف البحارة الغرقى في الشواطئ الخاضعة لسلطانه، ووقع في ١ أبريل من سنة ١٨٧٩ ملحقا إضافيا لمعاهدة السلم لسنة ١٨٥٨ وأصبحت تجارة الصمغ حرة وغير مقصورة على محطة داجانا والرسوم التي حددتها اتفاقية ١٨٥٨ تم استبدالها بتعويض محدد سنوياً بـ١٢٠٠ قطعة من قماش النيلة(كينى). ومع ذلك فقد كان اعل يغذي فكرة مشروع يقضى بإعادة تنظيم مملكة الترارزة باستعادة إقليم والو بلد أمه جمبت.

وفي سنة ١٨٨٦ اغتيل الأمير وزوجته وأبناؤه ما عدى واحد منهم اسمه احمد سالم ليلا في خيمتهم على يد محمد فال، الولد البكر للأمير سيدي. وبعد ذلك بشهور قليلة قتل محمد فال على يد عمه أعمر سالم آخر أبناء محمد الحبيب والذي فر إلى سان لويس ونجح في جمع مناصرين لأخيه اعلي. فأعْلِن اعمر سالم أميرا ووقع سنة ١٨٨٧ اتفاقية مع حاكم السنغال يتنازل بموجبها عن كل حق له أو دعوى في الضفة اليسرى للنهر مقابل التمسك برسم ١٥٠٠ قطعة من قماش النيلة ويضمن حرية وأمن تجارة الصمغ وإسعاف الغرقى.

ومع البراكنة تم سنة ١٨٧٩ توقيع ملحق إضافي لمعاهدة ١٨٥٨ في بودور وبموجب هذا الملحق لم تعد تجارة الصمغ حكرا على محطات بودور، وسالدَه *Saldé*، بل أصبحت ممتدة على كافة

البلاد. وتم استبدال الرسوم العرفية القديمة بتعويض قدره ٢٠٠٠قطعة من قماش النيلة.

وفي سنة ١٨٨٠ قبل ادوعيش بدورهم عدم احتكار التجارة الصمغية في محطات بكل وماتام *Matam* ولكنها تمتد على كافة البلاد. وهذا النظام الجديد للتجارة الحرة الذي حل محل نظام المحطات تم تبنيه في أعقاب التماسات الوسطاء الذين لا يملكون القدرة على منافسة تجارة الأغنياء المستقرين في المحطات.

وفي هذا الأثناء لا تزال الحرب الأهلية(الاغتيالات) قائمة في الترارزة. فالفتى أحمد سالم ولد اعلي الذي نجا من مذبحة أسرته وتربي في سان لويس ثم في إقليم الوالو بلد جدته أصبح على إثر مشاكل حدثت بيننا وبين اعمر سالم الأمير الجديد، أصبح أميرا رسميا معترفا به للترارزة وجمع حوله كثيرا من المعارضين. وبمساعدة من أقاربه في إقليم الوالو أعلن الحرب على عمه وهجم عليه سنة ١٨٩٣ لدى سهوت الماء واستولى عليه وأمر بذبحه[١] وأبرمنا مع هذا الأخير اتفاقية يوليو ١٨٩٥ لحماية مزارع السود في الضفة اليمنى للنهر. كما جدد سيدي اعلي أمير لبراكنة بدوره معاهدة الحماية وأقام ابنه أحمدٌّ مع الفرنسيين علاقات حسنة. وأخيرا وفي نفس السنة قرر بكار شيخ إدوعيش (فصيلة أبكاك) توقيع اتفاقية سلم معنا. وبعد ذلك بسنوات قُتل احمد سالم [ابن أعلي] أمير الترارزة غدرا من ابن عمه ولد إدَّيْدْ الذي كان يعتاد

(1) بل أمر ولد الدريكه بقتله فأطلق عليه النار

القول "إن أيا من أسرتنا لا يصل إلى شيء ما لم يقتل واحدا أو اثنين من أقاربه الأدنين". إلى أي شيء يمكن أن نعزو هذه الحروب الداخلية التي تعاود من حين إلى حين، والتي جاءت بعد فترة هادئة نسبيا خلال النصف الأول من القرن، والتي عرف الترارزة خلالها انشقاقات عنيفة وضراوة لا تصدق؟.

ويبدو أنه يمكننا الحصول على تفسير لهذه الظاهرة في السببين التاليتين: أولا فالمحاربون البيضان لا يعيشون إلا على الحرب والنهب، حيث يجد شيوخهم مصلحة في الفوضى لتبرير النهب والسلب. وأيضاً بعد سنة ١٨٥٤ فقد البيضان مجال نشاطاتهم المربحة؛ الشاطئ الجنوبي لنهر السنغال، ظلوا يبحثون في أقاليمهم الخاصة عما يغذى نشاطاتهم الحربية، ومن جهة أخرى، فالأمراء المضطرون إلى تقليص الهدايا لأتباعهم الثائرين الهائجين يصنعون معارضين يحثون مناوئين ويدفعونهم للعنف، ولعلم هؤلاء بأنهم الرابحون من هذه الحروب يتداولون الالتفاف حول هذه الفئة أو تلك حسب أهمية الهدايا الموعود بها.

* * * *

٤-الاكتشافات وجرد الموارد في بلاد البيضان

Paul Imbert – Honghton - Mungo park – Rummer – Cochelet - René Caillé – Davidson – Colonel Caille – Panet – Vincent - Bou El Mogdad – Bourrel - Alioun Sal – Mage - Fulcrand – Aube - Blanc et Clément – Cervera – Douls – Soller - Fabret – Graston Donnel – Paul Blanchet.

كان البرتغاليون كما رأينا أول الأوروبيين الذين يغامرون بالدخول إلى الأعماق الموريتانية، فقد دفعوا باستكشافاتهم سنة ١٤٤٥ نحو وادان، السوق النشط على محجَّة القوافل بين السودان والمغرب. وخلال القرون الأربعة التالية لم يقم أحد بمحاولة التوغل في الصحراء الغربية إلا ما كان من الفرنسي *Paul Imbert* الذي جاب هذه الصحراء بالمصادفة لا عن قصد، فقد كان هذا الأخير أحد الغرقى في الشواطئ الموريتانية، وتم أسره من قبل السكان الأصليين [البيضان]، وبعد جولات كثيرة أوصلوه إلى تمبكتو، ومات بالمغرب مستعبداً ولم يترك أثراً ولو قليلاً حول إقامته اللارادية في أرض البيضان. وهو أول أوروبي في الحقيقة يطأ شواطئ نهر النيجر.

وفي القرن الثامن عشر كانت قصص الجرائم الوحشية الناتجة عن تجارة العبيد إحدى أهم الممارسات التجارية في الشاطئ الإفريقي تصل إلى أوروبا، وتلفت انتباه الأوروبيين إلى هذه القارة التي ظلت مصدر اهتمام البحارة وحدهم.

ومع تعالى صيحات الرفض ضد هذه المحاولات، لم يلبث أن عقب ذلك شعور عميق بحب استطلاع هذه القارة التي ظلت إلى ذلك الحين شبه مجهولة تماما.

فأنشئت شركات من بين أخرى، ففي لندن أنشئت الجمعية الإفريقية للاكتشافات العلمية في إفريقيا، فانتدب رجال نشطاء مخلصون أنفسهم لاكتشاف سر هذه القارة السوداء والأقاليم الصحراوية.

فكان أول رجل بعثته هذه الشركة هو هوكتون*Houghton* فهلك بطريقة مأساوية وكتب صفحة في سجل الشهداء المليء قدما بأسماء مكتشفي إفريقيا.

فالنقيب هوكتون الذي كان قنصلا بالمغرب، ثم قائدا لقلعة كوري *Gorée* تمكن من التعايش مع عادات المسلمين والسودان، ووضع تصورا للوصول إلى غامبيا وبلوغ تمبكتومن خلال التوغل في أرض البيضان، والعودة إلى أرووبا عبر الصحراء مع القوافل، وبدأ رحلته سنة١٧٩٠ مصطحباً معه بعض الخدم السود، وبعد ما زار بعض بلاد السنغال وعبر النهر عند بلدة مدينة، وبعد دخوله إلى موريتانيا بقليل فقد خدمه السود، ولم يكد يبلغ "جارة"*Jarra*[(١)]؛ قرية في الصحراء تابعة لسلطان أهل اعل ولد أعمر، حتى التحق بقافلة من البيضان متجهة إلى تيشيت. وبعد يومين من المسير سلبه

(١) وهي المعروفة عند البيضان بزاره وكانت قواغل التجارة مترددة بينها وبين تكبة وشنقيط. راجع صحيحة النقل ومجموع النوازل لأبن انبوحه

رفقاؤه كل ما كان يملك وتركوه في عرض الصحراء. ولكنه استطاع العودة على الأقدام إلى بئر "جارة" حيث مات بعد قليل من عودته.

واستطاع مونكو بارك *Mungo Park* الذي سلك خطاه، أن يحصل على هذه التفاصيل، لكنه لم يصل إلى معرفة سبب موته؛ هل هو العطش أم إنه قتله البيضان. وهذا الافتراض الأخير في زعمه هو الأقرب إلى الحقيقة. أما *Mungo Park* المولود سنة ١٧٧١ فقد كان عمره ٢٤سنة عندما بدأ رحلته الأولي لحساب الجمعية الإفريقية، فركب في ٢٢مايو١٧٩٥ من *Ports Mouth* متجها نحو غامبيا، وصعد مع النهر وعبر السنغال قريبا من خاي*Kayes* ودخل أرض البيضان اعل ولد أعمر.

ولكن هؤلاء بعد ما وفروا له الأدلاء إلى تمبكتو استولوا عليه وظل حبيسا معهم قرابة ٣ أشهر، ذاق خلالها الإهانة وسوء المعاملة من قبل هؤلاء البدو الذين جابوا به جزءا كبيرا من موريتانيا الشرقية من خلال رحلاتهم التائهة.

وذات ليلة؛ وبعد ما أوصلتهم هذه الرحلات إلى قرية جارة، استطاع أن يلوذ بالفرار على حين غفلة من الحرس والمراقبين، فلحق بقافلة تحمل الملح إلى سانسانديك*Sansanding* ووصل إلى نهر النيجر في يوليو١٧٩٦ فكان ثاني أوروبي يطأ بقدمه شواطئ هذا النهر.

وفي سنة ١٨١٧ عرض أحد غرقى باخرة ماديز*Méduse* وهـــــو

اونغلوسكسوني اسمه روميير*Rummer* في الصحراء للقيام بأبحاث في علم الحشرات فشعر به البيضان، واستعبدوه مدة من الزمن، ثم أوصلوه إلى سان لويس، ودون بعض المذكرات عن عادات هؤلاء العشائر الذين عاش بينهم.

وفي سنة ١٨٢٠ نجا التاجر الفرنسي شارل كوشليه *Charles Cochelet* من الغرق في نواحي رأس نون وأخذه بيضان تلك المنطقة الذين عاش بينهم برهة من الدهر.

وبعد ذلك بعدة بسنوات؛ أي في ١٨٢٥ حصل الملاح [ولد كيجه] ريني كي*René Caillé* الذي رسم خطة يجوب من خلالها إفريقيا متظاهرا بالإسلام، حصل من حاكم السنغال على رخصة التوجه إلى موريتانيا مصحوبا ببعض البضائع والإقامة في أحياء لبراكنة، وكان هدفه دراسة أخلاق وعادات البيضان ودراسة اللغة العربية وشعائر الدين الإسلامي، وباختصار التمهيد لرحلته الكبيرة التي وضع خطة لتنفيذها.

فأقام قرابة السنة في لبراكنة وزودنا عن هؤلاء السكان البدو وبلادهم بمعلومات مهمة للغاية(١).

وفي وصفه لحي أمير لبراكنة يشير إلى السمات الواقعية لطبائع هؤلاء البيضان المتعجرفين والطماعين. "كان حي الأمير أحمدٌ أيام إقامتي بينهم قرابة ١٠٠ خيمة و٤٠٠ إلى ٥٠٠ من السكان. فإذا

(١) مذكرات تاريخية عن حياة ومؤلفات ريني كي، باريز سنة ١٨٣٩ Bouquelet

حصّل الأمير الرسوم العرفية امتلأ حيه من الضيوف الذين جاؤوا للحصول على بعض الهدايا، وقد رأيت بعضهم ظل ينتظر ثلاثة أشهر في أمل الحصول على ٣ أذرع من قماش النيلة؛ أي ما يعادل قيمة ١٠ فرنك. يقيم هؤلاء الطفيليون في أول خيمة يتم استقبالهم فيها ويظلون يتسولون مرتين في اليوم مساء وصباحا، سبحة في اليد وطست في اليد الأخرى من باب إلى باب يسألون شيئا من الحليب، وخلال النهار يظلون يتسكعون في الحي مثني مثني، ويجتمعون تحت الخيام للمحادثة، وينامون في الغالب بعدما يتخلصون من الهوام التي تقرضهم... وخيمة الأمير لا تجد فرقا بينها وبين خيام الأتباع فهي مصنوعة من وبر النعاج كسائر الخيام.

وفي سنة ١٨٣٠ فكر الانجليز في دراسة الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة، فحط المستكشف دافيد سون *David Son* في مصب واد نون ووصل إلى اكليميم فاستقبله الزعيم القوي لأيت موسي بيروك ولد محمد بحماسة واندفاع ودرس معه إمكانية بناء مرفإ على مصب واد الساقيه لتسهيل الاتصالات التجارية بين تكنه والانجليز.

ومن أجل إكمال دراسته للمنطقة واصل دافيد سون سيره نحو تمبكتو؛ مركز التبادل المطروق من قبل تكنه، مع قافلة من تجكانت، وقتل في الطريق في منطقة إيكيدي[1] من قبل مجموعة من البيضان لقيهم عندما لم يأخذ الحذر فابتعد عن مخيم القافلة.

---

(١) ايكيدي الشمالي الموجود في شمال موريتانيا

وفهِم بيروك ما يمكن أن يستفيده من متابعة الاتصال مع الأوروبيين، فعاقب القبيلة التي اغتال أصحابها دافيد سون، وتابع فكرة إنشاء المرفإ فتوجه إلى الفرنسيين من أجل إنجاز المشروع. وبعث لهذا الهدف مندوبين إلى القنصل في طنجة، ولكن بما أن فرنسا كانت في ذلك الوقت منشغلة في الجزائر لم يحصل على نتيجة.

وبعد ذلك بسنتين أي في سنة ١٨٤٠ جاء القائد بوى *Bouet* على متن القارب*La Malouine* لاكتشاف شواطئ واد نون للبحث عن مكان مناسب لإقامة مرفأ تجاري، ولم يتمكن من اكتشاف الموقع فتُرك المشروع . وبدون أن يفل ذالك من عزمه؛ قرر بيروك التوجه إلى فرنسا، حيث بعث سنة ١٨٤٣ وزيره بوعزه إلى فرنسا مصحوبا بتاجر فرنسي يدعى *Borel*، ولكننا في ذلك الحين كنا في حرب مع المغرب، وأعلنت حكومة لويس فيليب معارضتها لإقامة مشروع واد نون.

وخلال إقامتهما في فرنسا نجح بوعزه وبورل في إقناع بحار في مرسيليه بإرسال باخرة محملة ببضائع المقايضة إلى شاطئ واد نون، ولكن الربان لم يجد المكان المناسب للرسو وذهب وافرغ حمولة الباخرة في ماكادور(الصويرة).

وبعد موت بيروك، وبالرغم من معارضة سلطان المغرب الذي كان يخشى من تطور النفوذ الأوروبي على جنوب المغرب، قام أبناء بيروك بعده بمتابعة هذه المشاريع بدون ملل، غير أنهم لم

يتمكنوا من إقامة مرفإ تجاري كانوا يعملون لإقامته بجد ونشاط. وقد توجهوا بهذا الصدد إلى الفرنسيين ثم إلى الاسبان ثم إلى الانجليز.

وفي سنة ١٨٨٠ انشأ المهندس الانجليزي ماكنزي *Mackensie* وكالة تجارية في رأس جبي(الطرفاية) إلى الجنوب من واد نون، وأطلق عليه اسم بور فكتو ريا*Port Victoria* ، ولكنها كانت صفقة خاسرة. فقد عرضت الشركة المؤسسة على سلطان المغرب أن تتنازل له عن هذا المشروع الذي يتداعى للسقوط، فبادر السلطان إلى قبول ذلك وأقام فيه مركزا تجاريا لتأكيد سلطته الافتراضية على تلك الأقاليم [(١)].

وفي اكتوبر ١٨٤٣ قام العقيد كايي *Caille* برحلة استكشافية قصيرة لبلاد اترارزة وكتب رواية مختصرة عما شاهده.

وبعد ذلك بسنوات أي في سنة ١٨٥٠ تم ابتعاث ليوبولد باني *Léopold Panet* السنغالي الأصل من قبل وزير البحرية والمستعمرات في مهمة لعبور الصحراء من سان لويس إلى الجزائر.

فالتحق باني بقافلة من تجار بيضان آدرار فسلكت الشاطئ حتى وصلت بئر مور مرسى، ثم انحرفت نحو الشمال الشرقي متجهة إلى شنقيط الذي وصلته بعد ٢٢ يوما من ذهابها من سان لويس.

---

(١) منذ ذلك الحين أصبح رأس جيبي(الطرفاية) داخلا في ما يسمى وادي الذهب الذي استعاده الاسبان وأسسو فيه مركزا سنة ١٩١٦

وعلى الرغم من أن البلد لم يكن آمنا بسبب الحرب المخيمة بين أولاد احمد والترارزة، فإن القافلة بلغت آدرار دون عراقيل، ولكنها كانت تدفع العديد من رسوم المرور لمن تلقاهم من المحاربين.

وبعد شهر من إقامته بشنقيط، غادر مع مجموعة من أولاد بسباع العائدين إلى مخيماتهم في الشمال الشرقي، فمرت القافلة الصغيرة شرقي سبخة الجلد وأوغلت في الصحراء وأضناها العطش ثم عبرت مراتع زمور الغنية بالعشب، وبعد ذلك بقليل تعرض باني لهجوم من رفقائه بإيعاز من دليله المرافق، فسلبوه كل ما يملك وتركوه فريسة للموت. فالتقطه رجال من العروسيين واستمر في طريقه مستقيما نحو الشمال وعبر بلاد الرقيبات والساقية الحمراء ووادي درعة ووصل إلى موغادور (الصويرة) حيث ركب على متن قارب إلى فرنسا. واستغرقت رحلته هذه أربعة أشهر ونصف شهر في المسافة ما بين سان لويس والصويرة. وقد نشر باني رواية عن رحلته[1] التي تعتبر مهمة بوصفها تعطي انطباعا عن طبائع وعادات البيضان، ولكنها من الناحية الجغرافية تعتبر قليلة القيمة، ذلك انه كان ملزما بأن يمر سريعا ويتوقف بعيدا عن نقاط المياه على طريقة سكان البلاد، وقد كان يصعب عليه أحيانا أن يكتب مذكرات أو يستعمل البوصلة.

---

(١) رواية رحلة من السنغال إلى الصويرة نشرة المستعمرات والجزائر سنة ١٨٥٠

ونصل الآن إلى مرحلة لا يتردد فيها فيدرب المعين حاكما للسنغال في أن يخضع بالسلاح هؤلاء البيضان المتمردين المفسدين، وأن ينقل الحرب إلى داخل أقاليمهم الخاصة. وبعد أربع سنوات من الحرب المستمرة ١٨٥٤ _ ١٨٥٨ ومن البعثات المحاربة التي كان يجب أن تخصص لها كافة القوى الحية في المستعمرة، والتي تلتها بعد ما تم استتباب الأمن أعمال استثمارية سلمية.

وفي سنة ١٨٥٩ كانت الحالة السياسية للنواحي المجاورة للسنغال هادئة نسبيا، فقرر فيدرب القيام باستكشاف أقاليم السودان الغربي غير المعروفة بما فيه الكفاية، وخاصة موريتانيا، من أجل إكمال المعلومات غير الكاملة التي نملكها حول الجغرافيا وأجناس وخيرات هذه الأصقاع. فكانت تلك مرحلة الاستكشافات الكبرى التي تصل إلى آدرار والمغرب انطلاقا من السنغال.

ففي بداية سنة ١٨٦٠ تم تكليف النقيب من القيادة العليا فانصاه *Vincent*[١] بمهمة استكشاف آدرار .

كنا قد دخلنا في سلم مع الترارزة منذ سنتين، وقد تنازل لنا هؤلاء عن حقوق الملكية في الضفة اليسرى، وتعززت سلطة الأمير باستحداث رسم على صادرات الصمغ يدفع للأمير وحده بدل الرسوم العرفية التي كانت تدفع للأمير والأمراء الصغار والشيوخ.

---

(١) النقيب فانسيه رحلة استكشاف في آدرار نشرة المستعمرات والجزائر ١٨٦٠

غادر فانصاه سان لويس يوم ٥ مارس مصحوبا بالترجمان بوالمقداد مستشار قاضي سان لويس، فحط في دكانا *Dagana* يوم ٨ وتوجه مباشرة إلى محلة محمد الحبيب حيث استقبل بحفاوة وأقام هناك أياما، وغادر المحلة يوم ١٩ بعد أن حصل من الأمير على أدلاء يصطحبونه إلى قبيلة لعلب القبيلة الأبعد إلى الشمال من بين قبائل الترارزة.

وبعث معه لعلْب أدلاء آخرين وتابع سيره إلى الشمال مرورا بتورورت وميناء هدى ثم آركين، فلقي أحياء من قبيلة أولاد دليم ذات المحاربين المشهورين، وعبروا له عن رغبتهم الملحة فى إنشاء مركز تجاري في آركين.

وبعد آركين ترك فانصاه الشاطئ، واتجه نحو الشمال الشرقي عابرا "تازيازت" و"تيرس" مارا ببئر تشله قريبا من هضبتي "التواما" ووصل إلى "زوك" النقطة القصوى في الشمال لهذه الرحلة الاستكشافية. وبدأ من حينئذ الحديث عن "سبخة الجلد" الواقعة إلى الشمال الشرقي بمسافة ٣٠ كلم في ١٢ كلم عرضا، وهذه السبخة حسب المعلومات التي حصل عليها فانصاه تمون بمادة الملح أقاليم آدرار، تكانت، تيشيت، ولاته، وكرته وبمباره وسيكو وماسنه.

ويقوم باستخراج الملح من يدعون آغزازير أتباع أهل سيد محمد الكنتي(كنته) الذين يعود إليهم ملك هذه السبخة.

وكان يقدر الإنتاج السنوي المتوسط للسبخة بأكثر من ٢٠٠٠٠ حمل بعير وهو ما يعطي ٤٠٠٠ طن على أساس أن البعير يحمل ٢٠٠ كلغ.

ونزل فانصاه في زوك لدى ارموكه شيخ أولاد دليم الذي استقبله في البداية بدون ترحيب، وكان كل ما اقترح عليه فانصاه علاقة صداقة أو تجارة يرد عليه بسيل من المطالب المفرطة من الذهب وقماش النيلة. ولما نفد صبر فانصاه تمكن أخيرا من الحصول على أدلاء يرافقونه إلى أمير آدرار.

فغادر زوك متجها نحو الشرق ودخل آدرار والتحق بمحلة ولد عيده قريبا من بئر اخنيفيسة، وارتحل الأمير وحيه صبيحة اليوم الموالي متجها إلى الشرق قبل أن يتفضل بمقابلة المسافر، ولم يسمح بمقابلته إلى بعد يومين، وأعلن قبوله عقد صداقة مع الفرنسيين بسرعة ورغبته في إنشاء مركز في آركين في حال ما إذا كانت التجارة مع سان لويس ستتوقف بسبب الحرب مع الترارزة، وانتهز فانصاه الفرصة ليقترح توقيع معاهدة تجارية بين كبار شيوخ آدرار وفرنسا. ولكن يقول هو: رأيت الجباة تعبس وولد عيده الذي لم يكن يعيرني إلا قليلا من الاحترام بدا وكأنه أصبح شيئا فشيئا أقل استعدادا ووقوفا إلى جانبي.

وفي يوم ١٦ مايو وصل إلى شمال شنقيط، حيث كان سائرا على أثر الحي المرتحل، ولكن الأمير منعه من دخول شنقيط وسائر (قرى) قصور آدرار بل أصبح معاديا له تماما، ونفد صبر فانصاه وطلب منه أدلاء يساعدونه على العودة، فلم يكن بإمكانه الحصول على أدلاء بدون إذن الأمير، وذكره الأمير بوعده السابق بان يبعث معه شيخا من شيوخ الزوايا للتفاوض مع الحاكم في القضايا

المشتركة بين البلدين بهدف تدشين العلاقات الحسنة التي يرغب الطرفان في إقامتها.

وكانت تلك خاتمة بعدم الاستقبال، وحصل فانصاه أخيرا إلى إذن بالعودة فمر قريبا من اقصير الطرشان شمالي أطار، واستقدم من هنالك يهوديا أبيض يدعى ماردوشيه *Mardochée*، كان قد أقام في فرنسا مدة، فزوده بمعلومات عن آدرار. وفي آزوكي قرب أطار زار فانصاه أطلال بناية أروبية قديمة لا تزال بعض أنقاض أسوارها قائمة.

إذ تحكى الروايات انه كانت تسكن في آدرار قديما مجموعة من المسيحيين البيض[1] وطردهم الإمام الحضرمي الذي لا يزال قبره معروفا، وقد جاء هذا المرابطي من المغرب من أجل الجهاد في سبيل الله.

وخرج فانصاه من آدرار من مسلك فم جول إلى الشمال من أطار وعبر آمساكه وتوغل في سهل إينشيري العريض الذي يعيث فيه قطاع الطرق بسبب القوافل والمسافرين، وتوقف يوم ٢ يونيو عند بئر تيفزاززت ووصل يوم ٩ شاطئ تورورت. ومنها أخذ الشاطئ وعبر خليج ما رنكويه وفي اليوم ١٤ بعد يوم قطع فيه مسافة ٨٤ كلم، وصل إلى انجاكو ووصل من الغد إلى سان لويس، حيث قطع في ثلاثة أشهر ونصف شهر مسافة ٢٠٠٠ كلم في أرض

(١) البرتغاليون .

صحراوية. "عند ما وصلت إلى آدرار يقول هوفي روايته كان لدي مشروع تمديد الرحلة لتشمل تيشيت والعودة عن طريق تكانت، بكل وبودور، وكان بمقدوري فعل ذلك لولم أتأخر في آدرار مدة ٢٧ يوما لو كنت حظيت باستقبال جيد من ولد عيده".

وبالرغم من المشاكل التي تعرض لها النقيب فانصاه خلال رحلته هذه فإنه قدم سلسلة من الملاحظات والمعطيات غاية في الأهمية[١]، وخاصة عن آدرار الذي لم يدخله أوروبي بعد ذلك الدخول العابر للبرتغاليين في القرن الخامس عشر.

ويلاحظ هنا أن النقيب فانصاه لم يتمكن من الوصول إلى سبخة الجل والدخول في قصور آدرار، ولكنه استطاع أن يتخيل من قمة جبل أوادي في وقت كان فيه الجو صافيا كدية الجل ومن محاولة رؤية كدية الجل هذه ومن مرور باني بتورين تعود حقوقنا على كدية الجل التي ركزتها اتفاقية ١٩٠٠[٢].

ويذكر فانصاه لدى عودته بأن البيضان المحاربين كذابون ومنافقون وسراق ومصيبة للجميع يستوي في ذلك القريب وصاحب القافلة الغريب، ولا يحترمون شيئا، وقتل الإنسان عندهم أمر زهيد إذا كانوا يطمعون في الحصول على نهب أي كان وواثقون من عدم العقاب.

---

(١) دورة حول العالم في ١٨٦١

(٢) الملازم Schmitt الصحراء الغربية

وأما التياب المحاربون القدماء والذين تحولوا إلى طلبة، فإن تحولهم لا يعتبر نهائيا، متمسكون بعيوب المحاربين ولم يتحلوا بصفات الطلبة. وكذلك فان جميع المسافرين مجمعون على طابع المكر والقساوة في البيضان، وقليل من أولئك الذين دخلوا هذه الأقاليم من سلم من نهب أو قتل.

ويمكن من خلال هذه النظرة عقد مقارنة بين البيضان والسودان الذين هم في الغالب محسنون ورحماء، وهي مقارنة متوازيين، ستكون طبعا لصالح هؤلاء السودان الذين وصلتنا مآثرهم الجيدة من خلال ما كتبه مونكو بارك *Mungo Park*، الذي استقبلته عجوز زنجية مريضا مشرفا على الموت فعالجته بإخلاص، وكذلك ريني كايي الذي أصابه داء الحفر، أقام مدة خمسة أشهر لدى أسرة ماندانيكية، حيث تم له توفير العلاجات المستعجلة حتي تعافى. وكذلك أبو المقداد مستشار قاضي سان لويس الذي رافق النقيب فانصاه في رحلاته الاستكشافية ترجمانا، كتب عليه أن يجوب مرة أخرى موريتانيا من الجنوب إلى الشمال.

ورحلة أبو المقداد[١] كانت قبل كل شيء لأهداف سياسية، ذلك أن نجاح الحاج عمر وهو ابن قروي من بلدة تورو وتأثيره الواسع في إفريقيا الغربية، كل ذلك مكننا قديما من تقدير الأهمية التي يعيرها أهل هذه البلاد للحاج إلى بيت الله مكة.

---

(١) رحلة في اليابسة بين السنغال والمغرب نشرة البحرية والمستعمرات ١٨٦١.

ونظرا لبعد قبر الرسول(صلى الله عليه وسلم) الهدف الذي تتوق إليه تطلعات كل مسلم مطيع، ونظرا للمخاطر والأتعاب التي يتعرض لها الحجاج الراغبون في التوجه إلى هنالك، فإن بعض شيوخ الطلبة(*MARABOUT*) تمكنوا في مرات قليلة من العودة إلى بلادهم محلين بوسام الحاج، ولكن الاحترام والتقدير الذي يحاطون به يعوضهم عن أتعاب رحلتهم ومخاطرها. ولم يهتم أي من سودان سان لويس بمحاولة هذا الحج الأكبر. فرغب فيدرب في أن يقرب منه رجلا قادرا على معادلة نفوذ هؤلاء الطلبة الذين يدعون إلى الجهاد في سبيل الله عند الاقتضاء، فلم يتردد في إعطاء كل تلك التسهيلات لأبي المقداد من أجل تمكينه من الذهاب إلى مكة، ولكن بشرط أن يكون الجزء الأول من رحلته على اليابسة إلى المغرب ويجمع خلال هذه الرحلة كل المعلومات عن الأرض التي يعبرها والسكان الذين يلتقي بهم، معلومات يمكننا الاستفادة منها لاحقا.

ويعتبر أبو المقداد فيما يبدو فعلا مؤهلا للقيام بهذه المهمة، إذ قد كان قد دخل قبل عدة أشهر حتى وصل آدرار، وكان فوق ذلك يجيد معرفة لغة البيضان وعاداتهم لأنه تربي في الترارزة لدى أولاد ديمان.

فغادر سان لويس يوم ١٠ دجمبر ١٨٦٠ مصطحبا معه بعض البضائع للمقايضة، والتحق بقافلة من إديقب عائدة إلى آدرار، وسلك الشاطئ ومر بانجاكو ثم مر قريبا من ميناء هدى حيث علم

بمقتل أمير الترارزة محمد لحبيب على يد أبناء عمه، وأن ابنه البكر سيد خلفه وأنه قتل جميع قتلة والده.

إلا أن سلطة سيد لم تتأسس بعد بما فيه الكفاية، ولكن العروض التي قدمها له أبو المقداد جعلته يعلن تأكيده لصداقته مع الفرنسيين ويعطيه توصيات لأمير آدرار ولدعيده. ولكن سنة ١٨٦٠ كانت سنة شؤم على الأمراء، فبعد مرورها بتوجنين وصلت القافلة إلى بئر لبيدات في اينشيري حيث بلغها أن ولد عيده قد مات، وأن ابنه البكر محمد قتله إخوته الذين يريدون الاستيلاء على السلطان. وفي أعقاب هذه الأحداث كان محاربوا آدرار منقسمين إلى جناحين متعاديين، فرأت قافلة إديقب التي يرافقها أبو المقداد أنه من غير الحذر المغامرة في هذه الناحية فاتجهت غربا نحو تيرس.

وفي ١ يناير التقت القافلة رجلا من البيضان في مكان قريب من اكجوجت يرصد ويراقب حركة القوافل المارة بهذه النقطة للتزود بالماء قبل أن تتوغل في كثبان آكشار، ويطلع عن كثب أولاد دليم على ذلك "ولكن بفضل بعض الهدايا القليلة استطعنا أن نجعل هذا المراقب لصالحنا، ومرت ليلتنا تلك بدون أحداث" يقول أبو المقداد.

وفي ٥ يناير وصل إلى اللبة وفي يوم ٩ وصل قريبا من زوك حيث أخذ أولاد دليم أحد رفقائه ولم يتخلص منهم إلا بعد أن ترك لهم مطيته وثيابه.

وفي يوم ١٢ يناير وصلت قافلة اديقب إلى حيها، وتقدم أبو المقداد إلى مرابط (شيخ من شيوخ الطلبة) يدعى لفْظل ولد عبدي الذي أرسل معه ابنه ليوصله إلى واد نون لما عرف الهدف من رحلته. وبعد ما مر بدومس وصل إلى الساقية الحمراء؛ الحدود بين تيرس والأقاليم التابعة للمغرب، وبعد ذلك بأيام وبفضل مكافأة مناسبة وجد أبو المقداد رجلا من تكنه ضمن له المرافقة إلى واد نون. ذلك أنه من الضروري لمن أراد الرحلة في هذه البلاد أن يضمن حماية محارب معروف حيث يكفيه اسمه فقط ليجنبه السراق والقتلة.

وفي يوم ١٤ عبر المسافر أبو المقداد وادي درعة، ووصل يوم ١٦ إلى اكليميم عاصمة إقليم واد نون. ونبه بدوره على أهمية اكليميم كمركز تجاري، ورغبة تكنة في إقامة علاقات تجارية مع الأوروبيين.

"فاكليميم ـ كما يقول هوفي سرده لرحلته ـ هو النقطة المركزية التي تلتقي عندها تجارة المغرب مع الصحراء، فقوافل تمبكتو وتيشيت وشنقيط ومنموا الصحراء وتجار الصوف، كل أولئك يأتون هنا لمقايضة سلعهم بسلع أهل واد نون والبربر. وينظر السلطان إلى هذه النقطة بوصفها ذات أهمية كبرى، ويشجع بقدر المستطاع الشيخ محمد ليدفعه إلى جذب المزيد من القوافل، حتى إنه يتنازل له عن ١٠ بالمائة التي كان يتقاضاها هو نفسه قبل ذلك على هذه المنتجات.

فأسرة أهل الشيخ محمد ولد بيروك التي تحمل اسم أهل عبيْد الله السالم تحتكر هذه التجارة كلا، وهي التي تدفع السلفيات الضرورية لكل القوافل المتجهة إلى تيشيت والسودان، ومن هنا نفهم أهمية هذه الأسرة والاعتبار الذي تتمتع به في هذه البلاد.

ويرغب الشيخ محمد كثيرا في إنشاء مركز تجاري أوروبي في واد نون. ومنذ سنين عديدة بعث والده إلى سان لويس يطلب من الفرنسيين إقامة مثل هذا المركز. وحكومة المغرب تعارض هذا المشروع بكل ما تملك، ومنذ زمن قليل رست باخرة (جنسيتها اسبانية) أمام اكليميم وقام الرؤساء البيض(الأوروبيون) بمناداة الشيخ محمد الذي نوب عنه أخاه لحبيب. وبعد هذه الحادثة قام السلطان بإرسال فرق إلى واد نون لتخويف السكان من غضب السلطان. ومع أن هذا البلد تابع لسلطان المغرب، إلا أن السلطان يتحتم عليه أن يحافظ على كثير من اللباقة. فالسكان أشداء وبإمكانهم أن يجعلوه في ورطة.

ومن اكليميم اتجه أبو المقداد نحو تيزنيت، ثم مر بأكادير، وفي يوم ٦ مارس وصل الصويرة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ مغادرته سان لويس، وبفضل إتقانه للغة العربية استطاع أن يجمع معلومات مهمة عن البلاد التي زارها والقبائل الذين التقى بهم خلال رحلته هذه.

وقد اتسمت كذلك سنة ١٨٦٠، فيما يتعلق بموريتانيا، بثلاث رحلات استكشافية أقل أهمية. إحداها رحلة ضابط البحرية بورل *Bourrel* إلى البراكنة ورحلة الملازم السنغالي الأصل عليون صال

Alioun Sal إلى لبراكنة وتكانت والحوض وآخرها رحلة الملازم البحري ماج *Mage* إلى تكانت.

فإقليم لبراكنة كان قد زار بعض أطرافه رني كيي، ولكنه لم يقدم وصفا كاملا عنه ولم يحدد النقاط الجغرافية تحديدا تاما، وخاصة بحيرة ألاك التي كانت المعطيات عنها عمومية جدا.

وفي شهر يونيو ١٨٦٠ تم تكليف ضابط البحرية بورل[١] *Enseigne de Vaissau* بأن يجوب أرض لبراكنة لتصبح معروفة أكثر من ذي قبل. فركب النهر حتى بودور ومنه توجه إلى حي الأمير سيد أعلي أمير البراكنة الذي يوجد على بعد يومين مشيا على الأقدام إلى الشمال الشرقي. فاستقبله سيد أعلي بحفاوة ليبرهن على كثير من الاعتراف بالجميل على مساعدتنا له خلال حربه ضد ابن عمه للاستيـلاء على السلطة، حيث انتهى به الأمر إلى قتله بيده.

وأكمل بورل *Bourrel* مهمته في أحسن الظروف بفضل التسهيلات التي منحها إياه الأمير، فاكتشف بحيرة ألاك واتجه نحو الشرق ليتعرف على مختلف الأودية التي تنحدر من جبال تكانت التي كان يبصر حدودها في الأفق البعيد. ثم مر بكيمي *Guimi* ثم عاد إلى نقطة البدء؛ ورجع إلى بودور يوم ١٣ أكتوبر بعد أن عبر شمامه السائلة على متن قارب صغير، وأما عليون صال الملازم الأول في نظام الفرسان السنغاليين، والذي رافق بورل في رحلته إلى

---

(١) بورل: رحلة في أقاليم البيضان، نشرة البحرية والمستعمرات ١٨٦١

بلاد لبراكنة، فقد كان عليه أن يقيم بعد عودة بورل من أجل أن يقوم بالصلح بين الأطراف المختلفة في لبراكنة، وأن يواصل السير بعد ذلك إلى تمبكتو ليصل في النهاية إلى الجزائر بارتفاق قافلة مغربية متجهة إلى اتوات.

فأقام عليون صال ثلاثة أشهر في لبراكنة، وتمكن من إصلاح ذات بين أولاد نغماش وأولاد السيد قبيلة الأمير، ثم ذهب إلى تكانت ونزل لدى بكار أمير ادوعيش الذي استقبله بفتور، واختلق له ألف مشكلة، فأكد له عليون صال تخليه منذ زمن طويل عن خدمة المسيحيين وأنه ذاهب إلى مكة للحج. ولكن ذلك لم يزل الريب عند بكار الذي كان يعامله معاملة سجين تقريبا، حتى ولو كان قد تزوج امرأة زيادة في الاحتياط وكسبا للثقة.

ودام الأمر على هذه الحال حتى موت ولد عيده أمير آدرار، حيث ذهب بكار ومعه محاربوه فورا لدعم ترشيح الولد الثاني لابن عيده، صهر بكار فتمكن عليون من المغادرة والاستمرار في رحلته، فالتحق بقافلة راجعة إلى اركيبة حيث زار على التوالي جزءا من أرض كوركول وأفله والحوض وأقام في أولاد الناصر ومشظوف ولقلال. ومن ولاته ذهب إلى أروان ثم إلى باسكنو حيث أخذه بعض أتباع الحاج عمر أسيرا.

وفي اليوم التاسع من دجمبر ١٨٦٠ تم تكليف ضابط البحرية ماج بيسونكي *Enseigne de vaissau Mage* بالقيام بمهمة دراسة تكانت حيث غادر باكل ليتجه إلى بكار أمير ادوعيش. وكانت قافلته

الصغيرة مؤلفة من دليل واحد وأربعة أعوان وفرس وأربعة ثيران للحمل، تحمل أكداسا من المؤن تكفي لمدة شهرين وبعض سلع المقايضة وهدايا وسدسية لقياس خطوط الطول والعرض والكواكب وجهازا اصطناعيا لقياس الأفق يعمل بالزئبق. وبفضل هذه الأدوات يتمكن ماج من وضع خريطة للأقاليم التي عبرها بدقة وتحديد المواقع الجغرافية لنقاط الماء وقمم المرتفعات الأساسية. وفي اليوم الخامس عشر مساء لقي ماج مخيما بيضانيا بدأ سوقته في الفضول والريبة والأسئلة غير المباشرة والأحاديث المملة حتى انقضي جزء من الليل.

وفي اليوم السادس عشر ظل يسير محاذيا جبال "لعصابه" التي ترتفع كلما تقدمنا إلى الشمال، ووصل إلى حي من تجكانت حيث قام شيخ مسن منهم بحمايته من النهب، وانتدب رجلا من البيضان يدعى أنه رسول من بكار وقريبه لمرافقته إلى حي أمير ادوعيش. وأغلس المسافر ورفيقه قبل الفجر من أجل تفادي هؤلاء النهابين السراق الكثيرين في هذه النواحي يقول هذا الرفيق الدليل.

وفي اليوم الموالي وصلا إلى مشارف مجموعة من الخيام حيث قام شيخهم سيد أحمد البكاي بضيافتهما تلك الليلة.

ونظرا للتعب ونفاد الماء والحطب لطبخ ما تبقي لديه من أغذية، عزم ماج علي الاستقرار في هذا الحي البيضاني تحت الطلبات الملحة لشيخ الحي وضمانته بحمايته ضد النهب وتوصيله بنفسه إلى بكار. وبعد ذلك بساعة كان ماج محاطا بكافة محاربي الحي وكان

ملزما بأن يريهم أدواته وساعته ومؤنه ولم يتمكن من الاستراحة إلا عقب ليل. وفي الغد منعه القوم من الذهاب تحت ألف ذريعة، والشيخ نفسه الذي وعده بالمساعدة والحماية قام بتجريده من سلعه وطحينه وأوراقه وحتى أنه أخذ ثيرانه التي يحمل عليها أمتعته بحجة أنها لم تعد ضرورية لبقية الرحلة، ولم يترك له إلا ألبسته التي يلبس وأدواته ومسدسه، وأخذت هذه العملية يومين. ومع أن هذا الشيخ كان محاطا برجاله المحاربين فقد أضفى على نهبه بعض الأساليب والأشكال، آخذا الكل شيئا فشيئا وشاكرا بعد كل عملية غارة أو نهب كما لو كانت تقدم إليه هدية. وفعلا تمكن ماج أخيرا من المغادرة وحمل أمتعته المتبقية على جمل أعطيه بدل فرسه، واقترب من حدود تكانت، وعبر ممر "فم جوك"، ومن هذه النقطة اتجه نحو الشمال الشرقي، وقارب حي بكار، وذات صباح استيقظ وكانت المفاجأة غير سارة؛ فرفيقه ودليله الذي رافقه إلى الحي الذين نهبوه قرر أنه من الحزم والحذر أن يتركه ليقينه أن بكار لن يستقبله، ولكنه أخذ معه الجمل والأمتعة وبقية المؤن التي كان يحمل ماج معه. ومنذ ذلك الحين أصبح الرحالة لا يعتمدون إلا على ضيافة أحياء البيضان البائسة؛ يأكلون من الصمغ في طريقهم ويضطرون في الليالي الباردة من هذا الفصل لاستعارة أغطية مليئة بالقمل والهوام.

وفي اليوم الثالث والعشرين من يناير وصل ماج أخيرا إلى بكار وتم توجيهه فورا إلى المكان المهيإ له في وسط الحي أمام خيمة

الأمير. "سألني بكار هل أنا عطشان، هل أنا متعب دون أن يوجه إلي القول مباشرة، فطلبت الماء وطلبت خيمة استظل فيها وكانت الشمس محرقة، ولم أشرب منذ الساعة التاسعة صباحا. وبعد دقائق تمت تلبية مطالبي فآويت إلى الخيمة مرتاحا لأني تخلصت من إزعاج الأسئلة الفضولية. إذ كنت محاطا بأطفال وشبان يقوم أحدهم بجذب ساعدي وكمي ليجعلني ألتفت، فينظر إلى ويرفع الآخر قبعتي لينظر إلى شعري.... وتوقف كل ذلك. وقد كان بكار معترفا به عندنا بأنه أمير إدوعيش، ولم تكن سلطته على كل حال تمتد إلا إلى فصيلة أبكاك[1] من قبيلة إدوعيش المهمة وكانت رئاسة الفصيلة الأخرى: الشراتيت لدى الرسول المنافس لبكار.

وفي الساعة التاسعة مساء بعد ما نام الحي، استدعى الأمير ماج وبدأ الحديث. وأمام طلبات الهدايا التي هي أمر محتوم، قام ماج بسرد قصته مع النهب ولكنه مع ذلك كان يخفي على الناهبين في نعليه أربعة أسورة من الفضة والعقيق الأحمر(حجر كريم) فسلمها لبكار هدية. ويحاول بكار الحصول على وعد بإعادة إقرار الرسوم العرفية القديمة التي كانت تصل في زعمه إلى ١٠٠٠ قطعة من النيلة، ويجيبه ماج بأن هذا ليس من مهمته، ولكنه سيبلغ إلى

---

(١) أبكاك (أكلة الصمغ الأسود والشراتيت الدبية ألقاب لهاتين الفصيلتين المتحاربتنين واللتين على إثر حرب ضروس اضطرتا إلى أكل الصمغ وجلود الأبقار وإدوعيش الذين كانوا اتباعا لأولاد امبارك استقلوا سنة ١٨٠٠ على يد امحمد شين وبموت هذا الأخير حدث الخلاف بين الطائفنيتن االمتنافستين من أجل الاستيلاء على السلطة.

الحاكم هذه المطالب، ويضيف بكار بأن المفاوضات التي يمكن أن يجريها ماج مع الرسول لا تعني إلا الرسول.

وفي الغد بدأ الحي في الرحيل متجها نحو الجنوب، فطلب ماج من بكار السماح له بالتقدم نحو الداخل وزيارة القصور *Ksour*، ويجيبه بكار بأنه إن حاول ذلك فإنه سيتخلى عنه وسيقتل لا محالة. ويشارك الأمير المرابطين(شيوخ الزوايا والطلبة) المتشددين في الرأي السائد بأن البيض(الأوروبيين) إذا رأوا هذه البلاد فإنهم سيستولون عليها. وشيئا فشيئا نقترب من حدود تكانت. وفي يوم ٣١ دجمبر تم عبور آخر ذروة ونزلنا في السهل من ممر كارويGaroué.

وكان نزول حي كبير كحينا مع منحدر الجبل من خلال شعب صخري يشكل مشهدا مدهشا لا يمكن تصوره. رغاء الجمال ونهيق الحمير وأصوات الحيوانات المختلطة والقطعان التي تختلط وتتشتت، أبقار، إبل، نعاج، رجال، نساء وأطفال من هنا وهناك، كل شيء يتحرك ويبدو للناظر من بعد أن الجبل هو الذي يتحرك. وصحب بكار ماج حتى أوصله إلى فم جوك وأعطاه فرسا وشنا من التمر، وغطاءا من وبر الضأن ودليلا يصطحبه إلى تجكانت الذين ينتجعون في طريق عودته، حيث استقبلوه بكرم وغادر بعد مدة يسيرة في أيام طويلة إلى "ماتام"*Matam*.

وفي يوم ١٨ يناير توقف ماج لدى بئر تدعى كوما *Gouma* ودخل في منطقة الأدغال ليتجنب ملاقاة أحياء البيضان. ذلك لأنه

علم أن بكاي يرصد له الطريق للاستيلاء عليه انتقاما من غارة قام بها بكار على حي بكاي عقابا لهم على نهب رجل أبيض(أوروبي) كان رسولا إليه، فنهب قطعانهم وكان بكاي قد حلف لينتقمن من ذلك الرجل الأبيض.

وفي يوم ٢٢ عند الساعة ١٢ زوالا أبصر ماج أخيرا النهر وبعد ساعتين وصل إلى ماتام. ويذكر ماج في سرده لرحلته بأن بكار كان غنيا وقويا بفضل الدقيق والبنادق التي كانت تعطي له إذ ذاك، كرسوم عرفية في بكلْ. ومنذ أن توقفت تلك الرسوم بدأت ثروته تتناقص، ولكنه لا ينقصه شيء لأنه يبتز الطلبة(المرابطين الزوايا) فيسمحون له بفعل ما يشاء من أجل أن يحمي نفسه ضد المحاربين أو النهابين، وهاتان كلمتان مترادفتان، ولكن ليس من الدقة القول إنه غني فعلا.

وفيما يخص سلطة بكار فإنه يجب أن نزوره حتى نكون على علم من ذلك فأصغر الشيوخ وأدني المحاربين يعتبر هو الآخر شيخا، فكل التصرفات التي يقوم بها بكار تتم بالتشاور مع الشيوخ المحيطين به، الذين هم بدورهم لا يقومون بأي أمر إلا بعد استشارة أصحابهم، وخيمة بكار ليست في منأى من المزعجين فإذا أراد أن يناجي أحدا كان لزاما عليه أن يبتعد وأن يغير مكانه مرتين أو ثلاثا لتفادي كشف الأسرار. بكار استقبلني كما كان يستقبل الشيوخ البيضان وإذا كان قد استقبلني أول مرة ببرودة، فقد كان ملزما أمام رجاله بان يظهر كثيرا من الفطنة والتَّحري، وخلال ضيافته لي

عانيت كثيرا، وذلك عائد في البداية إلى صفتي كأروبي، لست مثل البيضان الذين يتحملون العطش والجوع والتعب خلال أيام ثلاثة دون انقطاع ما عدى إعداد وجبة واحدة ونومة واحدة، وجبة كبرى تسبب اضطرابا هضميا، وليس من النادر أن ترى رجلين من البيضان يأكلان وحدهما خروفا كاملا، ولعل نقص الألبسة والأمراض والهوام التي تتطاير تحت الخيام ساهمت كثيرا في زيادة معاناتي.

وبدأت أهمية تكانت التجارية تتناقص: فالمواشي (الأنعام) والصمغ، تشكل وحدها المنتجات التي يجلبها السكان إلى بكّلْ، وقد كان بالإمكان أن تكون أهميتها كبيرة لو أنه تم توجيه قوافل تيشيتْ إلى ماتام أو بكّلْ بدل أن تذهب إلى المغرب. فالعلاقات مع سيكو وتيشيت دائمة، وتيشيت تعتبر نقطة مرور لكثير من القوافل المتجهة نحو المغرب قادمة من سيكو ومن تينبكتُ.

وقبل أن أكمل روايتي هذه أتشرف بأن أعلن عن إخلاص وبسالة هؤلاء الأعوان الأربعة وصبرهم على تحمل البؤس والتعب خلال هذه الرحلة، فبعشرة رجال فقط من أمثال هؤلاء لا نخشى شيئا في أرض البيضان. ويمكنني أن أقول عالياً: إن شجاعة البيضان مجرد كلمة، إنها شجاعة القاتل، فهم ظلمة إذا تغلبوا متنازلون وهربة إذا غلبوا ولا يدخلون أبدا في حرب إلا إذا كانت لديهم قناعة بالغلبة والغنيمة. ففخرهم يشكل تناقضا فريدا مع عدم شرفهم، فرجل البيضان يرى من المهانة أن يضرب خيمته هو بنفسه (فهذه مهمة

النساء) ولكنه "يشحت " أتفه الأشياء من أول قادم، يضاف إلى ذلك السرقة التي هي من عاداتهم والاختلاس والنهب اللذان يعتبران شيئا طبيعيا ضد الضعيف.

مجتمع البيضان لا يوجد فيه من العائلة إلا اسمها، حيث يضرب الابن أمه وتُطلق المرأة لأتفه الأسباب والحجج ويُسمن البنات من أجل بيعهن في الأسواق مثل الخنازير ولمن يدفع أكثر.

فلا يقدم هذا المجتمع إلا تمردا مسرحيا ضد الأوروبي الذي تربى على احترام المرأة والعائلة، ويجد نفسه في هذا الجحيم الأخلاقي الذي يسمونه حي البيضان.

وكان أيضا من اهتمامات فيدرب القيام باستكشاف شواطئ موريتانيا.

ففي سنة ١٨٥٩ حاول إعادة الازدهار لمركز آرغين، فكلف نقيب الهندسة *Fulcrand* والملازم *Aube* بالذهاب إلى الجزيرة ودراستها ودراسة الرأس المجاور لها المسمَّى *Bais du Lévrier* فكانت نتيجة دراستهما التخلي عن آركين، لأن الدخول إليه أصبح شيئا فشيئا صعبا حتى بالنسبة للبواخر متوسطة الحمولة، وإنشاء مركز جديد في الرأس الأبيض. وبعد ذلك بعشر سنوات قام الملازمان في البحرية *Blanc* و*Clément* باستكشاف ثان للشاطئ شمال سان لويس بهدف اكتشاف أهم نقطة يمكن إقامة مركز فيها. ولكن تلك البعثات لم يتبعها أمر فعلي بعد ذلك.

وبسنة ١٨٦٠ التي تمت فيها خمس رحلات استكشافية، من بينها واحدة شكلت ربطا بالمغرب بأوامر من الحاكم فيدرب، ختم عهد الرحلات الدراسية والاستكشافية في موريتانيا.

ولن ينفتح هذا العهد من جديد إلا بعد ستين سنة من ذلك التاريخ؛ أي في سنة ١٩٢٠ عندما تم التقاء مفرزتين من الجمالة في إقليم الحنك الذي لم يسبق أن استكشف قبل ذلك: مفرزة القائد لوزان *Lauzanne* المنطلقة من أطارْ ومفرزة النقيب *Augieras* القادمة من الصويرة لتحقيق الربط الفعلي بين موريتانيا والجزائر للمرة الأولى.

وأثناء ذلك لم تشهد معلوماتنا عن الإقاليم التي يجوبها البيضان تقدما يذكر حتى سنة ١٩٠، تاريخ بداية توغلنا نحو الشمال. فقد مُنيّت مهمة ابلانشي *Blanchet* في آدرار ١٩٠٠ بالإخفاق للأسف.

ومنذ سنة ١٩٠٣ بدأت المعطيات عن موريتانيا تتحدد في آدرار كلما قطعنا مرحلة في احتلال البلاد.

وفي شمال آدرار كانت هذه المعطيات تكتمل بفضل البعثات التعرفية التي قام بها الملازم *Schmit* في سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢، وهجمات المقدم موري *Mouret* التي وصلت إلى الساقية الحمراء سنة ١٩١٣. وبعد سنة ١٨٦٠ تم القيام ببعض محاولات التوغل في داخل موريتانيا، ولكنها لم تتكلل في معظمها بالنجاح.

فقد بدأ *Paul Soleillet* سنة ١٨٧٩ رحلة من سان لويس تقوده إلى الجزائر عبر آدرار، فتم توقيفه وسلبه من قبل بعض أولاد دليم فور تجاوزه لإقليم الترارزة، ولم يتمكن من التحرر إلا بعد تدخل من الشيخ سعد بوه، وأرغم على العودة إلى سان لويس.

وعند عودته إلى باريس تم تكليفه بمهمة جديدة. فركب نحو سان لويس وأقام ثلاثة أسابيع في بلاد الترارزة، وأرغم من جديد على العودة مع خطاه.

ودخل أربع مرات إلى بلاد البيضان مصابرا ومصرا، ولكنه لم يستطع أبدا إتمام مشروع رحلته الصحراوية. ولكنه جمع وثائق مهمة حول هذا القطر وسكانه.

وفي سنة ١٨٨٣ حاول الاسبان أيضا احتلال الصحراء الغربية واستكشافها، فتم القيام بحملة إعلامية نشطة لهذا الهدف.

فقد تم أنشاء مركز تجاري في شبه جزيرة الداخلة، التي تسد رأس وادي الذهب، فهدمت فورا من قبل البيضان وقتل سكانها، فاحتج الاسبان لدى سلطان المغرب الذي أعلن عجزه عن التصرف. فأعاد الاسبان بناءها مرة أخرى، وفي نفس الموقع، وتم تأسيس مركز *Villa Cisneros* التي ظلت حتى السنوات الأخيرة تشكل ما يسمى (المؤسسات الاسبانية في وادي الذهب).

ثم قام الإسبان خلال السنوات الموالية برحلات استكشاف من أجل توسيع دائرة نفوذهم في داخل البلاد.

فدخل رجل من سبته بلاد تيرس حتى وصل إلى حاسي معط الله في خدمة الاسبان. وفي سنة ١٨٨٦ غادر ملازم البحرية *Cervera* صحبة المهندس *Quiroga* مركز الداخلة ومـرًّا بدومس وسبخة الجل حتى وصلا إلى "العيوج".

ومن هذه النقطة سجل خفيرا *Cervera* تاريخ المعاهدة التي يدعى أنه وقعها مع شيوخ البيضان الرئيسيين، والذين لا يذكر منهم فقط أهل آدرار بل يذكر كذلك الترارزة وقبول هؤلاء الخضوع لحماية الاسبان.

إلا أنه بعد ذلك بسنوات يذكر دولس *Douls* بأن ماء العينين بعث رجالا يقتلون سرفيرا *Cervera* ولم يستطع النجاة لولم يفر بسرعة.

وفي سنة ١٨٨٧ بدأ كامل دولس[١] أحد المستكشفين البواسل في رحلته الأولى، فنزل مصادفة في نقطة على شاطئ وادي الذهب، قريبا من رأس كارني *Garnet* ومر بأولاد دليم الذين تظاهر لهم بأنه تاجر مسلم، لكنهم اطلعوا فورا على أنه مسيحي، فنهبوه وضربوه ودفنوه حتى الذقن في الرمل تحت شمس محرقة. لكنه في وضعية مأساوية كهذه كان حاضر البديهة، فتلا عليهم آيات من القرآن بصوت عال، فخشي البيضان أن يكونوا قد غلطوا في حقه، وأنه ربما يكون مؤمنا حقا، فانتشلوه من الرمل وقدموا له

---

(١) Camulle Douls خمسة أشهر لدى البيضان البدو في الصحراء (دوران حول العـالم ١٨٨٨) .

العلاج المناسب. فعاش دولس في الحي الذين استقبلوه وكان يتبعهم في تجوالهم نحو الشرق لغاية إكيدي، ونحو الشمال حتى الساقية الحمراء ووادي نون، وارتبط بغرام مع فتاة من القبيلة التي عالجته خلال محنته الأولى. وحصل على إذن بالسفر إلى بلاده للبحث عن المهر.

فصعد إلى الشمال ووصل إلى مراكش حيث اتهم بأنه مسيحي فسجن. ولكن القنصل الإنكليزي نجح في تحريره وقاده إلى الصويرة، ومن ثم عاد إلى بلاده. وخلال تجواله ظل مرتبطا تماما بحياة هؤلاء البدو الرحل. تمكن دولس من أن يراقب عن كثب ويحصل على مقتطفات غنية من الوثائق حول طباع هؤلاء وأخلاقهم وعاداتهم، ولكنه لم يستطع أن يجمع من الوثائق العلمية إلا قليلا.

إلا أن المحن والمخاطر التي تعرض لها دولس خلال رحلته الاستكشافية الأولى، لم تثن من عزمه في الاستكشاف شيئا. فما إن عاد إلى فرنسا حتى وضع تصورا وقام بتنفيذ مشروع رحلة جديدة، يعبر فيها المغرب في زي مسلم ويمضي إلى تينبكتُو ويعود عن طريق السنغال. وفي منتصف الطريق قريبا من بئرهليكن *Hilighen* في منتصف الطريق بين أكبلي وتينبكتُو تم خنقه من قبل رفقائه وأدلاَّئه. وقد كان عمره خمسا وعشرين سنة. وفي نفس الفترة كلف *Charles Soller* من قبل الحكومة الفرنسية بالقيام بمهمة إلى المغرب وعلى الشواطئ الموريتانية، حيث جاب هذه الشواطئ من

واد نون إلى آرغين لدراسة هذه النقطة بالذات، ودراسة رأس *Bais du Levrier* من حيث إمكانية إقامة مراكز تجارية.

وفي سنة ١٨٩١ انتُدب *Léon Fabert* من قبل حاكم السنغال للقيام بمهمة في بلاد الترارزة، فبدأ سلسلة من خمس رحلات استكشافية في موريتانيا الجنوبية. فقام بدراسة ناحية آفطوط الساحلي (البحري) والمستنقعات المالحة الموجودة فيه، وهو مكلف كذلك بإبرام اتفاقية مع آدرار الذي لم تكن لنا به علاقة سياسية. وبما أن الإقليم كان مضطربا بسبب الحرب القائمة بين أهل آدرار وإدوعيش، بعث *Fabert* برسالة إلى المختار بن عيدّ يطلب فيها حرسا مرافقا، اللهم إلا إذا كان لا يريد أن يعيد الاتفاقية المقترحة موقعة من قبله. وكان رد الأمير قبول الشروط التجارية المقترحة من قبل فرنسا، وأنه لن يتعامل مع أي قوة أخرى، ولكنه أعاد الاتفاقية غير موقعة. ولكن هذا التوقيع تم الحصول عليه في العام الموالي من قبل الترجمان بو المقداد الذي أبرم باسم فرنسا مع ولد عيد اتفاقية بموجبها نتعهد نحن بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لآدرار، وبحماية القوافل القادمة من السنغال، وبأن ندفع للأمير رسما عرفيا سنويا قدره ٥٠٠ قطعة من النيلة مقابل رسم ٢، ٥% المقتطع عند دخول البضائع. وتعهد ولد عيدّ بعدم التعامل مع أي دولة أوروبية أخرى، وأن لا يمنح أي احتكار داخل بلده دون موافقة من حاكم السنغال.

وفي سنة ١٨٩٤ بعث وزير المستعمرات (المستكشف) *Gaston Donnet* في مهمة التعرف على آدرار، وإذا أمكن أن يصل إلى المغرب مرورا بالترارزة ثم بأقاليم أولاد أبي السباع وأولاد دليم، وبوادي الذهب. ولكن هذا البرنامج للأسف لم يكتمل، حيث نهبت قافلة دوني عند رأس تيمرس وعاد إلى السنغال. وأخيرا، وقبل احتلالنا لموريتانيا، تم إرسال بعثة علمية بقيادة بلانشي التلميذ السابق بمدرسة المعلمين العليا والمكلف بالدراسات الجغرافية ومؤلفة من *MM Dereins* الجيولوجي والدكتور في العلوم وملازم الخيّالة *Gouinot Gambetta* والترجمان بو المقداد و٢٠ قناصا. وتهدف هذه البعثة إلى دراسة النواحي الملحية في سبخة الجل والمنخفضات المجاورة. وقد دفعت الأهمية القصوى لهذه البعثة إلى قيام العديد من المصارف المهمة بتحمل تكاليفها.

غادرت البعثة سان لويس في مارس١٩٠٠ وسارت مع الشاطئ واستكشفت ناحية بيبواك *Biboiakh* المليئة بالممالح الكثيرة والتي كانت يستغلها السكان المحليون لأغراضهم الخاصة. ومن هنا اتجهت البعثة نحو آدرار وبعد المقابلة الأولى الودية مع الأمير المختار ولد عيدَّ تغير الموقف الشعبي وأصبح معارضا للأوروبيين. فالملازم كامبتا هوجم وجرح خلال رحلة يغرف، وحوصرت البعثة في دارها التي تسكن فأصبحوا أسرى. ولكن بفضل تدخل الشيخ سعد بوه المرابط المؤثر في الترارزة تم تحريرهم مقابل فدية، فكان عليهم أن يعودوا إلى سان لويس فورا قبل إكمال مهمتهم.